تأليف : درُوثي ناثان

ترجمة : مرُزوق احمَد

نسَاء باسلاَتْ

نساء باسلات

تأليف : دروثى ناثان

ترجمة : مرزوق أحمد

الناشر : مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"

المحتويات

WOMEN OF COURAGE

Published by the Random House, New York

مؤلفة الكتاب

تخرجت دوروثى ناثان فى كلية الآداب بجامعة كاليفورنيا ، ثم حصلت على درجة الماجستير فى التربية والتعليم . وقد عملت فى احدى الهيئات الاجتماعية فترة من الزمن ، ثم انتقلت منها الى مهنة التدريس . ولكنها قضت الجزء الأكبر من حياتها فى تربية أطفالها الثلاثة ، كما تطوعت فى نشــاط بعض الهيئات الاجتماعية مثــل الجمعية الأمريكية لدراسة مشــاكل الأطفال وجمعية الــكفاح من أجل حقــوق المراة الانتخابية وغيرها من الجمعيــات .

وتعيش أسرة ناثان فى الريف القريب من مدينة نيويورك ، وفى بيتها غرفتان للدراسة والاطلاع ، لأن كلا من دوروثى ، وبول ناثان يمارس الكتابة والتأليف . وقد بدأت تظهر مواهب ابنيهما أندرو وكارل الطالبين فى جامعة هارفارد فى التأليف والكتابة ، كما ظهرت نفس الموهبــة فى ابنتهما جانيت الطالبــة بالمدارس الثانوية . أما الموهبة الوحيدة فى بيت ناثان التى لا تعرف الكتابة والتأليف فهى قطتهم المدللة .

ولقد كانت السيدة ناثان مهتمة دائما بحياة الأفراد يدفعها حب استطلاع شديد لمعرفة صفاتهم وخصائصهم والظروف التى تشكل حياتهم . ومنذ ان بدأت تنتبه قليلا الى ما يدور حولها فى الحياة كانت تأمل من أعماق قلبها أن تصبح كاتبة .

وهذا هو كتابها الأول . . . **« نساء باسلات »** .

نساء باسلات

تقديم

يتناول هذا الكتاب عرضاً لحياة خمس سيدات رائعات ، تجمع بينهن جميعاً صفة جوهرية فريدة ، ألا وهى الشجاعة العظيمة والبسالة الفائقة . بيد أن حياة كل منهن تختلف عن حياة زميلاتها اختلافاً مميزاً ومثيراً .

لقد كانت « سوزان ب . أنتونى » رائدة نساء عصرها ، تشق الطريق — لأول مرة — أمام الأمريكيات ليفزن بالحقوق السياسية والاجتماعية .

وهجرت « جين آدامز » حياة الترف والرفاهية ، واتخذت — فى سبيل تحقيق رسالتها — من أزقة وحوارى شيكاغو سكناً لها .

وانتفضت « مارى ماكلويد » ، وكأنها صرخة لضمير الانسانية ، تقاتل بشجاعة فائقة شتى ألوان التعصب والتفرقة العنصرية حتى استطاعت أن تمنح أطفال الزنوج نصيباً مما ينعم به أطفال أمريكا ، وما ترفل فيه الحياة الأمريكية من مباهج وحقوق .

ولم تقنع « اميليا ايرهارت » بكفاح المرأة الأمريكية فوق سطح الأرض ، فطارت محلقة فى السماء بطائرتها تعبر القارات ، وتقطع المسافات ، وتركب الأهوال لتثبت أن المرأة لا تقل عن الرجل شجاعة ، وجرأة ، وطموحا .

وبحثاً عن أسرار الطبيعة البشرية ، رحلت «مرجريت ميد» الى أقاصى العالم ، بمفردها لتقدم نتيجة دراسات ميدانية عن مجتمعات بشرية بدائية ، غير هيابة عما يعترض طريقها من أهوال وأخطار .

والواقع ، أن هناك كثيرات من الأمريكيات الممتـازات اللاتى كرسن حياتهن وجهودهن فى سبيل ارساء قواعد المجتمع الأمريكى ، وفى سبيل الوصول بهذا المجتمع الى الدرجة التى تجعله نموذجاً يحتذى به ـــ ولكن بين جميع هؤلاء السيدات المكافحات ، تقف السـيدات الخمس شامخات كالقمم ، لما يملكن من شجاعة فائقة ، وما يتحلين به من قدرة خارقة على الخلق والابداع .

المؤلفة

سوزان ب. أنتوني

Sasan B. Authony

الفشل مستحيل

١

عندما بدأت «سوزان ب. أنتونى» نضالها فى سبيل الاصلاح الاجتماعى قابلتها الجماهير بالسخرية والصفير استنكاراً لقولها بأن للنساء الحق فى التمتع بما يحظى به الرجال من حقوق سياسية . واشتدت المعارضة ضدها حتى هددها السكارى باطلاق الرصاص عليها ، وعلقت الدمى التى صنعت — شبيهة لها — فى المشانق أو ألقيت فى النيران ، وشهر بها رجال الدين باعتبارها امرأة خطيرة ومعوجة ، وسخرت منها الصحف فى رسوم هزلية تصورها فى هيئة ساحرة عجوز شوهاء نصف عارية ، تبدو عليها معالم الرجولة ، وتدخن سيجاراً أسود غليظاً .

ولكن الآنسة أنتونى لم تستسلم أو تلين وظلت — أكثر من ستين عاما — تناضل بكل ما تملك من قوة من أجل مبادئها وتقف فى وجه جميع المصاعب والعقبات . وعندما لاقت ربها فى الثالث عشر من شهر مارس عام ١٩٠٦ وهى فى السادسة والثمانين كانت قد أفسحت لنفسها مكاناً الى جوار قادة أمريكا .

* * *

ولدت سوزان برونيل أنتونى فى ١٥ فبراير عام ١٨٢٠ ، فى عصر كانت تربى فيه الفتيات كما تربى الزهور فى البيوت الزجاجية يعشن فى حياء ، معتزلات ، لا يعرفن الرياضة فى الخلاء كالجرى والقفز أو ركوب الدراجات ،

لأن هذا كان أمراً مستحيلا والفتاة تحيا مقيدة بتقاليدها حبيسة داخل ملابسها. فما أن تبلغ الثالثة عشرة من العمر حتى تبدأ فى ارتداء مشد قاس يعتصر جسدها اعتصاراً ليشكله فى الصورة التى تناسب موضة أيامها ، وترتدى فوقه قميصاً وسراويل طويلة ثم خمس أو ست تنورات ثقيلة مبطنة ومنشاة ، وفوق هذا كله تلبس ثوباً له رقبة عالية وأكماماً طويلة وصـديرية ضيقة وجونلة طويلة تكنس الأرض بها كنسا كلما خطت خطوات قليلة .

فى ذلك العصر ، كان أمل المرأة فى الحيـاة هو أن تتزوج ، كما كانت وظيفتها هى الاشراف على البيت وتربية الأطفال ، فلم تكن بحاجة الى تعليم عال ، ولم يوفر لها مثل هذا التعليم ، وانما كانت الفتاة تتعلم طهو الطعام ، وصنع الجبن والزبد ، وبعض أعمال الغزل والنسج والخياطة .

وكانت المرأة التى لا تتزوج تعيش موضعا لعطف المجتمع أو سخريته . وقل من كان يصدقها اذا حاولت الادعاء بانها تفضل حياة العزوبة ، فمـا من أحد يتصور امرأة تفضل عدم الحصول على زوج يقوم باعالتها ومنحها مركزاً فى المجتمع . والحق أن النساء كن رعايا لا مواطنات . فلا يظهرن فى الأماكن العامة بغير مـرافق ، وكن محرومات من أى حق أمام القـانون ، ممنوعات من ادارة عمل ، أو توقيع عقد ، أو وراثة مال أو امتلاك أرض ، أو حتى الوصاية الشرعية على أطفالهن .

وأكثر من هـذا ، كانت المرأة تضـطر الى العمل بدفع أجرها الى الزوج ، مما يؤكد أن الرجال كانوا يسلمون بأن النساء أدنى مرتبة منهم وأنهن مخلوقات ناقصات ، وحرم عليهن الادلاء بأصـواتهن مثل العبيـد والمعتوهين والمجرمين .

لذلك ، لم تكن المرأة تتولى عملا أو وظيفة ، ولكنها كانت تكدح فى البيت . وكان دانيال أنتونى ـــ والد سوزان ـــ رجل أعمال ثرياً ينتمى الى طائفة الكويكر ، ويمتلك متجراً ومصنعا للنسيج فى المنطقة الريفية البديعة التى تقع بالقرب من آدمز فى ولاية ماساتشوستس . وكان رجلا كريماً يحب

زوجته لوسى ، ومع ذلك كانت هذه الزوجة المحبوبة مطالبة بادارة بيتها الذى كان يضم فى ذلك الوقت ــ بناتها الثلاث الصغيرات وأحد عشر عاملا مقيماً هم عمال مصنع النسيج ، وكان عليها أن تقوم بخدمة كل هؤلاء ، وتساعدها بعض الوقت تلميذة صغيرة ، لم تكن تتجاوز الثالثة عشرة من العمر .

وهكذا كانت لوسى تطبخ وتنظف ، وتغسل ، وتكوى ، وتصنع الخبز والفطائر فى فرن من الآجر ، وتعد الطعام لستة عشر شخصاً ، فوق موقد يقع أمام غرفة الفرن . وما من يوم من أيام عملها الشاق الطويل كان يخلو من أعمال الغزل والنسيج وأعمال الابرة ورتق الملابس . ومع ذلك لا يكاد أحد يذكر أن لوسى اشتكت مرة واحدة ، لقد كانت متاعبها صورة طبيعية لكل امرأة فى بداية القرن التاسع عشر .

كان زوجها دانييل يعيش وفقا لأحكام ضميره أولا ثم قواعد المجتمع ثانيا ، وقد أصاب جيرانه من طائفة الكويكر بصدمة بالغة حينما أقدم على الزواج من لوسى ريد ــ رفيقته وحبية صباه ــ لأنها لم تكن تنتمى الى طائفتهم ، ومرة أخرى صدم جيرانه صــدمة قاسية ، عندما خرج دانيل أتتونى المستقل التفكير على مبدأ « بساطة الملبس » فى فصل الشتاء . فقد أحس بالبرد بينما الأوشحة الصــوفية توحى بالدفء فارتدى الأوشحة الصوفية الزاهية الألوان التى دفعت عن أذنيه لسعات البرد القارس ولكنها لم تستطع أن تدفع عنه عبــارات التأنيب التىوجهها اليه أعضاء جماعة الكويكر .

كان المستر أتتونى حراً فى آرائه الى حد كان يثير الفزع حتى فى نفس زوجته ، فقد ربى الأطفال على الاعتقاد بأن البنات ــ وان كن يختلفن عن الأولاد ــ الا أنهن لسن أقل منهم أو أدنى مرتبة . وذات مرة سمح لابنته سوزان ذات الاثنى عشر ربيعا أن تعمل فى المصنع مكان امرأة كانت تلف البكرات ثم سقطت فريسة للمرض . وكانت سوزان سعيدة بهذا العمل ،

وظلت تلف خيوط القطن على البكرات باخلاص وأمانة طوال أسبوعين كاملين ، وفى نهايتهما نقدها السيد أنتونى دولاراً ونصف عن كل أسبوع وهو نفس الأجر الذى كانت تتقاضاه تلك المرأة . وأعطت سوزان نصف ما كسبته لشقيقتها حنة ، وبالنصف الآخر اشترت لأمها بعض الأطباق والفناجين الزرقاء .

وفى احدى الأمسيات بينما كانوا يتناولون الطعام قالت سوزان لأبيها : « لماذا لا تتولى سالى آن الاشراف على عاملات لف البكرات فى المصنع ؟ انها تستطيع فك الخيوط أفضل مما يفعل ايليا ! » .

كانت مثل هذه الاشارة شيئا لا يمكن أن يفكر فيه حتى رجل متقدم التفكير كالسيد أنتونى ، فهز رأسه وقال : «انها لا تصلح لهذا العمل ، فما من امرأة يمكن أن تكون رئيسة » .

بدأت سوزان حياتها الدراسية فى باتنفيل بولاية نيويورك حيث انتقلت أسرتها وهى فى سن السادسة . وهناك التحقت بمدرسة المقاطعة ، وهى عبارة عن مبنى عتيق مكون من قاعة واحدة يجلس فيها جميع الأطفال فوق مقاعد خشبية طويلة مثبتة بطول الجدران .

وتعلمت سوزان بسرعة كيف تقرأ وتجرى بعض العمليات الحسابية البسيطة ، ولكنها فى يوم من الأيام أصابت مدرسها بالدهشة حينما طلبت منه أن يعلمها « القسمة المطولة » ، ورفض المدرس ، لأنه لم يكن مطمئنا الى درجة تمكنه من الموضوع أولا ، وثانيا لأنه لم يكن يتبين سببا واحداً لرغبة فتاة فى حشو رأسها بمعلومات لا طائل من ورائها بالنسبة لها .

ولكن السيد أنتونى كان له رأى آخر ، كان يرى أن أطفاله يحتاجون الى مزيد من علم أفضل مما تقدمه لهم مدرسة المقاطعة ، فأعد لهذا الغرض غرفة فى الطابق الأعلى من منزله الجميل المكون من خمس عشرة غرفة ، وزود الغرفة بأحدث المعدات المدرسية والقمطرات المستقلة ؛ ودعا أطفال

جيرانه للالتحاق بهذه المدرسة ، واستخدم سيدة صغيرة السن تلقت العلم في « مدرسة عليا للبنات » لتكون أول معلمة في هذه المدرسة .

وقد أدخلت هذه المعلمة ، الآنسة ماري بيركنز ، العديد من الأفكار التعليمية التي كانت تعتبر جديدة في تلك الأيام . وكان من الطبيعي أن تتعلم سوزان والفتيات الأخريات — شأنهن شأن من يحسن تربيتهم — صنع مضربات السرير ، وتركيب الكرانيش ، كما تعلمن أيضا القاء الشعر واجراء القسمة المطولة ، بل وقدمت الآنسة بيركنز لهن الكتب المقررة على تلاميذ المدارس .

وعندئذ آمن السيد أنتوني بأن بناته يجب أن يتعلمن الاعتماد على النفس كالأبناء تماما ، وأراد لابنتيه سوزان وجيلما أن تحصلا على كل ما يؤهلهما للاشتغال بالتدريس ، فالتدريس كان حتى ذلك الوقت هو المهنة المحترمة الوحيدة المفتوحة أمام المرأة . وعندما بلغت بنتاه الكبيرتان نهاية العقد الثاني من العمر أدخلهما مدرسة الآنسة ديبورا مولسون للفتيات لتستكملا فيها التعليم ، وقد أرسلت سوزان الى المدرسة الداخلية في مطلع عام ١٨٣٧ لتلحق بشقيقتها جيلما التي كانت قد سبقتها اليها بعام .

كانت مدرسة الآنسة مولسون تقع بالقرب من فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا ، ولم تكن سوزان بنت السابعة عشرة قد انفصلت من قبل عن بيتها وأسرتها مما جعلها تشعر بوحشة شديدة . وفي عام ١٨٣٧ كان طابع البريد يكلف ١٨ سنتا ، ولو لم يكن الحظ قد خدم سوزان بتعيين والدها وكيلا لمكتب بريد باتنفيل لكبدتها خطاباتها الى الأسرة مبلغا طائلا ، اذ كانت وظيفة وكيل مكتب البريد تعفي شاغلها وجميع أفراد أسرته من استخدام طوابع البريد . وقد لامت جيلما أختها قائلة : « سوزان ، انك تكتبين كثيراً ، وعليك أن تتعلمي الايجاز » . ولكن سوزان استمرت في الكتابة والمراسلة .

كانت الآنسة مولسون تحيط كتابة الرسائل بقواعد صارمة ، فكان

على سوزان أن تكتب الخطاب أولا على لوح من الاردواز ، فتقوم المدرسة بتصحيحه ، وبعد ذلك تقوم سوزان بنقله على ورقة فولسكاب مستخدمة ريشة كبيرة . واذا سقطت منها نقطة حبر كان عليها أن تعيد كتابة الرسالة من جديد . كما كان عليها أن تكتبها بحروف دقيقة لأن الخط الجرىء المنطلق لم يكن من صفات السيدات الراقيات ، وبخط دقيق جميل كتبت تقول :

« والدى الحبيبين ..

ان اختلاف الجو هنا عن مناخنا فى الشمال شىء محسوس . وقد بدأ الثلج يتساقط منذ ظهر اليوم واستمر حتى المساء . ان اهمالى فى الكتابة اليكم لا يرجع الى عدم تفكيرى فى البيت ، ولكن الى استغراق التفكير كله وفى كل لحظة فى المذاكرة والدروس » .

كان المفروض أن تقتصر خطابات الفتيات الصغيرات على الموضوعات المأمونة الجانب كالحديث عن الجو أو الصحة ، ولكن سوزان كانت تحاول أحيانا أن تنقل صورة من حياتها فى المدرسة . ومرة جاء مدرس زائر ليحاضر الفتيات عن العلم فكتبت سوزان تقول « كان لديه مجهر أسعدنا أن نشاهد عن طريقه التراب المتطاير من جناحى فراشة ... » .

ومرة تلقت سوزان خطابا من الأسرة تحدثت فيه عن صديقة صغيرة السن تزوجت من أرمل له ستة أطفال . فعلقت على هذا الحادث فى مذكراتها بقولها : « أعتقد أن أى امرأة تفضل أن تعيش وتموت عذراء عجوزاً ، على أن تتزوج مثل هذه الزيجة » .

حاولت سوزان أن تبذل كل ما فى وسعها من جهد فى المدرسة ، ولكن هذا الجهد لم يكن كافياً فى نظر الآنسة مولسون العجوز الصارمة . وذات مرة وبختها توبيخاً قاسياً حتى دفعتها الى البكاء والفرار الى غرفتها . وفى تلك الليلة كتبت فى مذكراتها تقول : « لو أننى فعلا تلك الآثمة الدنيئة لوددت أن أحس ذلك بنفسى . والحق أننى أعتبر نفسى مخلوقة سيئة الى حد أننى لا أتصور معه أن هناك من هو أسوأ منى » .

فما هى خطيئتها الدنيئة ؟ لم تكن أكثر من أنها لم تستطع أن تعيد على أسماع الآنسة مولسون قاعدة وضع النقطة على أحد الحروف .

وذات يوم اكتشفت سوزان نسيج العناكب فى سقف الفصل ، وكأى ربة بيت ممتازة جاءت بمكنسة لتزيل هذه الأعشاش . وسحبت مقعد المدرسة حتى يمكنها أن تقترب بمكنستها من بيوت العناكب . ومن سوء الحظ كسرت مفصلة المقعد مما جعل الآنسة مولسون تدمدم بالغضب . وعاملتها بصرامة لدرجة أن سوزان كتبت بعد هذه الحادثة بعدة سنوات تقول : « ما من مرة طافت بى ذكرى ذلك اليوم ــ ولمدة ستين عاماً ــ الا وأحسست بالقشعريرة والألم فى صدرى » .

وفى ربيع عام ١٨٣٨ جاء السيد أنتونى الى فيلادلفيا ليعود بالفتاتين الى موطنها ، وأبلغهما أنباء محزنة ــ اذ تعرضت أعماله لأوقات عصيبة وأفلس ، وباع كل ما يملك ليسدد ديونه .

فقد بيع المصنع والمتجر وكذلك البيت الأنيق بالمزاد العلنى ، وشاهدت السيدة أنتونى أثاث بيتها وهو يتبخر قطعة وراء أخرى ولم يبق منه شيء حتى طاقم ملاعق الشاى الفضية ، هدية والديها فى مناسبة زفافها ، كما بيعت أيضاً كتب الأولاد المدرسية وخناجر الأطفال ، ونظارات السيد والسيدة أنتونى ذات الشنابر المعدنية ، وملابس الجميع وما كان مخزونا من دقيق وشاى وبن وسكر .

وكتبت سوزان فى مذكراتها تقول : « من المحتمل ألا أعود ثانية الى المدرسة ، ومن الآن فصاعدا فان كل ما سأحققه من تقدم سيتوقف على جهدى الخاص » .

وفى مارس عام ١٨٣٩ انتقلت الأسرة الى قرية صغيرة تعرف باسم هارد سكرابل ، وتحولت مذكرات سوزان الى سجل بأعمال المنزل : « قمت بغسل كمية كبيرة من الملابس ــ أمضيت اليوم كله أمام المغزل ــ صنعت ٢١ رغيفا ــ بالأمس نسجت ثلاث ياردات من السجاد ... » .

ولكن الشباب لا يطيق صبراً على الأحزان ... وسرعان ما أصبحت الآنسات أنتونى تستمتعن بحفلات أقراص النحل وتقشير التفاح وركوب مركبات الجليد . وأحيانا كانت تخرج مجموعات ثنائية فى مواكب من عربات الدوكار والخيول فى طريقها الى احـــدى القرى القريبة لتناول الطعام فى الخلاء أو للتريض على شاطىء نهر جميل . وتزوجت جيلما وكذلك حنة وكان لسوزان معجبون كثيرون تقدم منهم عديدون يطلبون يدها ولكنها رفضتهم جميعاً . لقد كان يبدو أن لها فى الحياة هدفاً أخطر وأكثر جدية .

وكثيراً ما كانت سوزان تجادل زوج جيلما الجديد آرون ماكلين دفاعا عن ايمانها بضرورة تعليم الفتيات والفتيان بطريقة واحـــدة . وفى يوم من الأيام أعدت سوزان للعشاء بعض الفطائر الشهية المحشوة بالكريمة فقال آرون : « ان مشاهدة امرأة تصنع مثل هذه الفطائر لأحب عندى من رؤيتها وهى تحاول أن تحل معضلة حيوية » .

فقالت سوزان : « أما أنا فلا أرى سبباً واحداً يمنعها من القيام بالعملين معا » .

٢

فى أواخر عام ١٨٣٩ تسلمت سوزان أول وظيفة لها فى سلسلة وظائف التدريس التى قامت بها بعيداً عن بيت الأسرة . وقد ظلت تعمل فى هذه المهنة بلا انقطاع حتى عام ١٨٤٥ . وفى تلك الفترة كانت تعيش مقترة على نفسها لترسل النقود الى بلدتها لمساعدة أبيها وأسرتها .

وبدأت أحوال السيد أنتونى تتحسن بالتدريج . وفى عام ١٨٤٥ انتقل بأسرته الى روشستر بولاية نيويورك ، وهناك استعاد ثراءه .

وما أن أصبحت سوزان غير مطالبة بارسال النقود الى أبيها حتى أخذت تنفق كل راتبها على شراء الملابس . وكتبت تقول : « أصبح لدى قبعة جديدة

من طراز قبعات الفجر المصنوعة من القش ، موشاة بشريط أبيض فى احدى حافتيه أهداب ، وفى الأخرى شريط من الأطلس ذى اللون الأحمر الوردى ، وفى الوسط وشى من الورود البيضاء والأوراق الخضراء » .

وصففت سوزان شعرها الكستنائى الغزير على أحدث التسريحات ، أربع جدائل طويلة ملفوفة حول كعكة كبيرة . واشترت فستانا بلون البرقوق ، « اعترف الجميع بأنه من أرق وأجمل الثياب » ، وتساءلت فى مذكراتها عما اذا كانت شقيقاتها « لا يشعرن بالحزن لأنهن تزوجن ولم يعد فى مقدورهن أن يحصلن على ملابس جميلة » .

كانت سوزان تذهب لزيارة أسرتها كلما واتتها الفرصة . وكان بيت أبيها لا يخلو أبداً من أناس ذوى حيوية وذكاء يتناقشون حول أهم الأحداث . وفى معظم أيام الأحاد كان كثيراً ما يتواجد حول مائدة الغذاء خمسة عشر أو عشرون ضيفاً ، وسوزان تنتقل بسرعة ما بين المطبخ وغرفة الطعام ، فقد كانت ترغب فى مساعدة أمها ولكنها كانت فى ذات الوقت تكره أن تفوتها كلمة واحدة مما يدور من حديث .

وكلما كانت تصيخ السمع ... كانت تزداد تلهفا الى محاربة الرذائل الاجتماعية ، وبدأت تسهم فى المعارك ضد الرق وادمان الخمر ، وحضرت اجتماعات المطالبين بالغاء الرق ، كما انضمت الى منظمة « فتيات العفة » التى كانت تطالب باصدار القوانين لتنظيم صناعة التقطير (الخمور) .

والتقت سوزان بسيدات أخريات لهن نفس اهتماماتها منهن ـــ السيدة اليزابيث كادى ستانتون ، والسيدة لوسى ستون (بلاكويل) ، والسيدة لو كريشيا موث ، والأم أنتوانيت براون ، والسيدة اميليا بلومر ، وغيرهن كثيرات . ووجدت سوزان نفسها ـــ بتشجيع حار من والدها ـــ تعطى « كل ذرة من كيانها » للنضال من أجل الاصلاح .

وكانت المرة الأولى التى تحضر فيها سوزان مؤتمراً للمطالبة بحقوق المرأة فى مدينة سيراكوز بولاية نيويورك . وقد بدأ انعقاد المؤتمر فى الثامن

من سبتمبر عام ١٨٥٢ . وقد قابل جمهور المشتركين فى المؤتمر (ومعظمه من النساء بطبيعة الحال) المتحدثين بعاصفة من التصفيق وهم يسألون «لماذا تحرم النساء من حق التملك ؟ ولماذا ينكر عليهن الحق فى التعليم العالى ؟ ولماذا لا يتساوين مع الرجال أمام القانون ؟ » . وطالب المؤتمر للنساء بحرية التعبير وحق التصويت .

ويبدو أن مراسل « جريدة سيراكوز » كان يحس بالعطف لأنه كتب يقول : « ان أحداً لا يستطيع أن ينكر أن مواهب عظيمة كانت تشترك فى ذلك المؤتمر .

« وكان مظهر جميع السيدات متواضعا لا ادعاء فيه ، وقد قدم العمل على كل شىء ، ونوقشت المطالب بروح نسائية حقيقية صادقة » .

ولكن جريدة نجمة سيراكوز وصفت المؤتمر « بمؤتمر المسخرة » . وبعد انتهاء المؤتمر اندلعت من فوق منابر الوعظ وفى جميع أنحاء البلاد « عاصفة من السخط والهياج » استمرت عدة شهور . وأبرز خلالها القساوسة ورجال الدين المشاهد المؤلمة لنساء لا يعرفن الحياء هجرن عائلاتهن ليتحدثن أمام الناس . وقال القساوسة : ان الرجال الذين يشجعون مثل هؤلاء النساء ليسوا أصدقاء مخلصين للمرأة بل هم أناس يحاولون فى الواقع استدراج النساء من عليائهن ليلقوا بهن فى التراب والوحل .

وكانت معظم السيدات يعشقن هذا اللون من الحديث . ويجلسن فى مقاعد الكنائس يصلحن شيلانهن المخرمة بينما تتطاير أشرطة قبعاتهن فى الهواء وكأنها تعلن الطلاق « أفكار جميلة .. جميلة جداً » .

ولم تشأ مجموعة النساء المؤمنات بالاصلاح البقاء فى عليائهن ، بل رغبن فى النزول الى أرض المعركة والتحرك والتحرر من المشدات المخرمة الضيقة . ورأين أن الملابس الثقيلة ليست الا ضربا آخر من ضروب الطغيان الذى تعيش النساء فى ظله ارضاءً للرجال ، كما آمن بأن ارتداء

الملابس المناسبة سيمكنهن من تأكيد حقوقهن ، وأهم من ذلك اعتقدن أن الراحة البدنية حق لكل انسان .

استطاعت السيدتان اليزابيث كادى ستانتون ولوسى ستون اقناع سوزان بأن « اصلاح الزى » جزء لا يتجزأ من حركة المطالبة بحقوق المرأة ، فتخلت عن طيب خاطر عن ملابسها الأنيقة ، وخاطت لنفسها واحداً من الأزياء الجديدة يتكون من ثوب طليق تحته سراويل على الطراز التركى ملمومة عند الكاحلين (أو الرسغين) . وتولت اميليا بلومر — التى كانت تصدر مجلة — حث النساء على تجربة ذلك « الزى الأمريكى » الجديد المريح .

واستجاب لدعوة السيد بلومر عدد ضئيل لا يتجاوز أصابع اليدين . بينما أخذ معظم الرجال والنساء يشهرون : « بزى السيدة بلومر المفجع » فى عاصفة أرعدت بطول البلاد وعرضها .

وكانت مس أنتونى أو أى واحدة من صديقاتها كلما تظهر فى مكان عام يحتشد حولها بسرعة جماهير من الرجال والأولاد للتهكم عليها أو رميها بالحجارة . وكثيراً ما كانوا يتعقبون السيدة المرتبكة عن قرب شديد وهى تجتاز الشارع ، فتضطر السيدة التعسة الى الاختباء حتى يتفرق معذبوها ، فتتسلل الى بيتها مخترقة الشوارع الخلفية ، وازاء هياج الرأى العام ، قاطعتها النساء الأخريات ، بل وكثيراً ما كانت أسرتها ترفض الظهور معها فى مكان عام .

وتحملت سوزان هذه المذلة بشجاعة ، وان كانت كلفتها الكثير من الدمع الغالى ، ولكنها كانت تشعر بضرورة الاخلاص لمبادئها ، ولهذا احتملت ذلك الزى البغيض عاماً ونصف العام .

وفى صيف عام ١٨٥٣ اشتركت سوزان فى اجتماع لجمعية المعلمين بولاية نيويورك ، وبصبر نافذ أمضت يومين كاملين فى صمت وسكون وهى تستمع الى أحاديث الرجال المتكررة عن الأسباب التى جعلت مهنة التعليم

لا تتمتع بنفس القدر من الاحترام الذى تتمتع به مهنة الطبيب أو المحامى أو القسيس . وكان أكثر من ثلثى المدرسين المشتركين فى المؤتمر من النساء اللواتى لا يملكن – بسبب جنسهن – أن يتكلمن علانية أو يبدين رأيا فى الموضوع أو المسائل المطروحة للبحث ، وانما كان عليهن – فقط – أن يدفعن رسوم الاشتراك ثم الانصات فى خضوع تام .

وأخيراً لم تستطع سوزان صبراً فأومأت برأسها وقالت : « سيدى الرئيس ! » .

وران صمت فاجع مثير ، واستدارت جميع الرؤوس لترى تلك الفاجرة التى تجرأت على تحطيم قاعدة صارمة من قواعد السلوك الاجتماعى بمحاولتها لفت أنظار الجمهور اليها ، فرأوا امرأة شابة نحيلة وجادة لاتتجاوز الثالثة والثلاثين من العمر ترتدى الزى البلومرى المقيت .

وسأل الرئيس : « وماذا عند السيدة ؟ » .

فدق قلب سوزان بعنف فى صدرها ، واصطكت ركبتاها ، ثم استطاعت أن تقول بصوتها الخفيض العذب الواضح النبرات . يخيل الى أنكم فشلتم فى تفسير سبب عدم الاحترام الذى تشكون منه . ألا ترون أنه طالما كان المجتمع يرى أن المرأة لا تملك من المقدرة الذهنية ما يسمح لها بأن تكون طبيبة أو محامية أو قسيسة ، وانما تملك ما يؤهلها لمهنة التدريس ، فان كل رجل منكم يقبل العمل بالتدريس انما يعترف بأنه لا يملك من ملكة التفكير والقوى العقلية ما يزيد عن أى امرأة ؟ .

وجلست الآنسة أنتونى . وبصوت مسموع همست السيدة التى تجلس فى المقعد المجاور لمقعد سوزان الى جارتها « امرأة مشينة » ، ولمست جونلتها الواسعة المصنوعة من الحرير المموج حتى لا تتدنس بملامسة ثوب الآنسة أنتونى « البلومرى » .

وبقدر أكبر من الوضوح رأت الآنسة أنتونى أن المعركة من أجل حقوق المرأة ستكون طويلة ومريرة ، وأن حلقتها الرئيسية هى حق التصويت ،

فعندما تتمكن النساء من الادلاء بأصواتهن فستتوالى عليهن الاصلاحات الأخرى التى يتطلعن اليها .

ولم يمض وقت طويل حتى قررت سوزان أن الزى البلومرى خطأ يجب اصلاحه لأنه يجذب اهتمام المستمعين الى ملابس المتكلم أكثر من اهتمامهم بموضوع الحديث ، ومن الفطنة أن يناضل الانسان من أجل مطلب واحد فى وقت واحد .

وتخلت سوزان عن مهنة التدريس كما تخلت عن الزى « البلومرى » وتحولت حتى نهاية العمر الى فراشة لحوحة تكرس كل يوم من أيام حياتها ، وكل دولار من ثروتها ، وكل ذرة من كيانها « لقضية مساواة المرأة بالرجل » .

فى ولاية نيويورك بدأت الآنسة أنتونى كفاحها ، فتنقلت فى طول الولاية وعرضها لتتحدث عن حقوق المرأة ، وتبيع النشرات والكتيبات وتجمع التوقيعات على عريضة بغرض تقديمها الى المجلس التشريعى فى الولاية لحث الأعضاء على تغيير القانون بما يكفل للمرأة حقها فى التملك .

وبدأت الآنسة أنتونى جولتها بمدينة « مايفيل » فى مساء اليوم السادس والعشرين من ديسمبر عام ١٨٥٤ ، وكان الجو باردا ، وتجمع أول جمهور لها — وكان جمهوراً صغيراً — فى فناء أحد البيوت الذى أضاءته أربعة أرطال من الشموع اشترتها سوزان بستة وخمسين سنتاً . ثم أصبحت الآنسة سوزان بعد ذلك تتحدث فى الأماكن والمدن الأخرى ، فى القاعات والكنائس . وكثيراً ما كان المسئولون يرفضون السماح لها باستخدام الأماكن المعدة للاجتماعات العامة ، وعندئذ تأخذ فى البحث عن شخص متفتح الذهن ومنصف — ربما صاحب فندق — يقبل أن تستغل قاعة الطعام فى القاء محاضرتها .

لم تكن تلك الجولة بالرحلة السعيدة ، فقد كان الشتاء كثير الثلوج على غير المعتاد ، وأكثر المدن التى زارتها تقع فى نهاية رحلة طويلة شديدة

البرودة تقطعها فى مركبة جليد . كما لم تكن الفنادق تعرف فى ذلك الوقت المياه الساخنة أو نظم التدفئة ، وكثيراً ما كانت الآنسة تضطر الى تحطيم الثلوج المتجمدة فى اناء الماء قبل أن تستطيع الاغتسال .

ولم يكن أكثر من استمعوا اليها قد سبق لهم أن سمعوا امرأة تتحدث فى اجتماع عام ، فلامها البعض على تعريض نفسها للأنظار ، وسبها آخرون ولعنوها لمحاولتها ــ على حد اعتقادهم ــ هدم أسرهم السعيدة . ومع ذلك كان كثيرون ينصتون باهتمام الى حججها القوية ويرغبون هم وزوجاتهم وبناتهم فى مساعدتها . وعندما عادت الآنسة أنتونى الى مدينتها لتصيب شيئاً من الراحة بعد جولتها التى استمرت خمسة شهور ، كانت قد زارت أربعاً وخمسين مقاطعة وضيعة وباعت ما يقرب من عشرين ألف نشرة وكتيب .

ثم كانت العريضة التى ستقدمها الى المجلس التشريعى لا تزال فى حاجة الى توقيعات أكثر . فخرجت فى يناير عام ١٨٥٦ مع رفيقة لها فى جولة ثانية ، وكان شتاء تلك السنة أشد برودة وأكثر ثلجاً من شتاء العام السابق ، ورأت الآنسة أنتونى للمرة الثانية نماذج بليغة من الظلم الذى تناضل ضده ، وكتبت الى أمها تقول :

« محطة ويندت ــ ١٤ يناير ١٨٥٦ .

« الساعة الثانية عشرة والنصف صباحاً .

« توقفنا فى حانة صغيرة صاحبتها سيدة صغيرة السن لم تتجاوز العشرين من العمر ومع ذلك كانت أما لطفل فى شهره الخامس عشر . كانت الأطباق التى استخدمت فى وجبة الغداء لم تغسل بعد ، وكان الطفل يصرخ ويبكى ، ومع ذلك كانت تلك السيدة الصغيرة مسيطرة بشجاعة على موقفها فهدهدت الكائن الصغير حتى نام ، وغسلت الأطباق ، ثم قدمت لنا العشاء .

« تنازلت لنا عن غرفتها الدافئة ، وفوق صنف من المشاجب شاهدت أجمل ما وقعت عليه عيناى من جونلات وملابس أطفال مطرزة كانت كلها من

صنع أنامل تلك السيدة الصغيرة ، وفوق رف آخر رأيت الملابس المكوية على أحسن ما يكون الكواء ، قمصـانا داخلية ، وملابس طفـل ، وملابس مطرزة ... وغير ذلك من قطع الثياب .

« وفى السادسة من صباح اليوم التالى أعدت لنا فطوراً شهياً مكوناً من لحم الخنزير المحمر والبطاطس المهروسة ، والفطير باللحم ، كما أعدت لى ، وبناء على طلبى طبقاً من فطائر التفاح الحلو وجرة من اللبن الغنى بالدسم .

« والآن اليك الحكمة من هذه القصة . حينما جاء وقت دفع الحساب ، تقدم منا رجل أبله ـــ هو زوج تلك السيدة ـــ وأخذ منا النقود ووضعها فى جيبه ، لم يكن ذلك الرجل قد مد يداً واحدة يخفف بها عن كاهل زوجته بعضاً من تلك الأعباء ، كل ما كان يعمله أن يتحدث الى الرجال فى غرفة البار ، ولم يكلف نفسه حتى مجرد الاهتمام بالطفل بعض الوقت ومع ذلك فان القانون يعطيه الحق فى أخذ كل دولار تجنيه زوجته بكدها ومجهودها . وعندما تحتاج تلك الزوجة الى ابرة لرفى الملابس لا يزيد ثمنها على السنتين ، كان عليها أن تطلب ذلك المبلغ الضئيل من زوجها مشفوعاً بأسباب حاجتها اليـــه » .

وفى شهر فبراير سافرت الآنسة أنتونى الى ألبانى عاصمة الولاية لتقدم للمجلس التشريعى ثمرة جهد عامين من العمل الشاق ، وكانت العريضة موقعة من ١٠,٠٠٠ سيدة طلبن فيها منحهن الحق قانوناً فى التصرف فى ايراداتهن ، وفى حضانة أطفالهن .

ولم تترك تلك العريضة أى أثر فى نفوس أعضـــاء المجلس التشريعى وتساءل واحد منهم : « هل يمكن أن نعضد بأى شكل من الأشكال مثل هذه المطالب المشينة والاجرامية التى لا يقبلها العقل ؟ وهل يمكن أن نضفى اعتراف القانون على هذا التشهير الذى يسمونه مساواة النساء بالرجال ؟ ونحن نعرف أن الله قد خلق الرجل ممثلا للجنس البشرى كله » .

ثم شكلت لجنة من المجلس لدراسة طلب الآنســـة أنتونى ، وقدمت

تقريرها للمجلس . وراح الشيوخ يدقون بأيديهم ويقهقهون وهم يستمعون الى رئيس المجلس وهو يعلن : « .. أن للنساء دائماً المكان الأفضل واللقمة السائغة على مائدة الطعام » ، كما أن لهن أفضل المقاعد فى العربات ، وأدفأ الأماكن فى الشتاء وأرطبها فى الصيف ، فضلا عن أن ثوب السيدة يتكلف ثلاثة أضعاف ما تتكلفه بدلة الرجل ، وهو على أحدث طراز باستمرار ، وتحتل السيدة الواحدة مكاناً يتسع لثلاثة رجال . وهكذا يتضح أنه ان كان هناك ظلم أو عدم مساواة فان الرجل ولا أحد غيره هو ضحية هذا الظلم » .

نصح الأصدقاء الآنسة أنتونى بايقاف جهادها ، وكتبت اليها السيدة اليزابيث كادى ستانتون « دعى العالم وشأنه بعض الوقت ، فأنت تحتاجين أيضاً الى الراحة ، ونحن لا نستطيع احداث ثورة أخلاقية فى يوم واحد أو حتى فى سنة واحدة » .

غير أن الآنسة أنتونى كانت تؤمن بمواصلة الجهاد فى المواسم وفى غير المواسم فى الاجتماعات العامة أو الخاصة ، فبعثت بردها الى السيدة ستانتون تقول : « ليس ذلك الا قعقعة العربة التى تنقل المحصول الى البيت والتراب متصاعد من عجلاتها ، وهى أمور لا بد من حدوثها ، والسعداء هم الذين يبصرون النهاية بوضوح » .

وعلقت فى مذكراتها بقولها : « ان من يتصفون بالحرص والحذر ويفكرون فى سمعتهم ومركزهم الاجتماعى لا يستطيعون تحقيق الاصلاح » .

وواصلت سوزان نضالها ، فسافرت الى « تروى » لتلقى كلمة فى اجتماع جمعية المعلمين بولاية نيويورك موضوعها : « لماذا لا يتعلم الأولاد والبنات فى مدارس مشتركة » . وكانت هذه الفكرة صدمة بالغة لكثير من الناس ، وبعد أن انتهت سوزان من كلمتها قال لها رئيس الجمعية : « سيدتى ، ان تقديمك الموضوع كان رائعاً ، وما كنت لأطمع فيما هو أفضل

من ذلك ، ولكننى أفضل تشييع زوجتى أو ابنتى الى مدافن جرينوود على أن أراها واقفة فى هذا المكان أمام هذا الجمهور (المختلط) لتلقى مثل هذا الحديث » .

وبشجاعة أعدت الآنسة أنتونى محاضرة جديدة عنوانها : « المرأة الحقيقية » تعبيراً عن ايمانها الذى لا يتزعزع فى أن المرأة لا ينبغى « أن تضحى بكل شىء من أجل حب رجل واحد » أو أن توائم بقية حياتها على أساس نزوات هذا الرجل .

وقالت الآنسة أنتونى ان لكل امرأة شخصيتها ومواهبها ، وعليها أن تتقدم فى الدراسة والفنون ، والعلوم ، وادارة الأعمال . وذهبت الى أبعد من ذلك فآمنت بأن المرأة التى تتزوج زيجة تعسة لها كل الحق فى أن تطلب الطلاق .

وفى ستينيات القرن التاسع عشر زاد عدد الأمريكيين الذين يؤمنون بحق المرأة فى الانتخاب حتى بلغ المئات . وكان هؤلاء المؤيدون يأملون فى أن تتحرر النساء مع العبيد بعد انتهاء الحرب الأهلية (انغمست الآنسة أنتونى بكل ما عرف عنها من حماسة فى معركة النضال من أجل تحرير الزنوج) . غير أن التعديل الرابع عشر الذى تحول الى قانون فى ٢٨ يوليو ١٨٦٨ منح صفة المواطن لجميع المعتوقين ولكنه لم يتعرض للنساء بأى اشارة . وقد حاولت الآنسة أنتونى وغيرها التأكيد بأن النساء مواطنات ، متسائلات : « أليس النساء من هذا الشعب ؟ » ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل .

وبالرغم من التعديل الرابع عشر ظل الزنوج فى الولايات الجنوبية محرومين من حق الانتخاب . وأصبح من الواضح ضرورة ادخال تعديل آخر ينص فيه بوضوح على حق كل مواطن زنجى فى ممارسة حق الانتخاب .

وألقت زعيمات الحركة النسائية بكل ثقلهن من أجل التعديل الخامس عشر ، وللمرة الثانية راودتهن الآمال فى تحرير الزنوج والنساء بقانون

واحد . وفى ذلك الوقت كانت الآنسة أنتونى قد أصبحت رئيسة « الجمعية الأمريكية للمطالبة بالحقوق الانتخابية للمرأة » وهى منظمة جديدة هدفها حمل الولايات المتحدة على الاعتراف بحقوق المرأة السياسية .

وفى ٣٠ مارس ١٨٧٠ أصبح التعديل الخامس عشر قانوناً للبلاد ، وقد جاء فيه : « أن حق المواطنين فى الولايات المتحدة فى الادلاء بأصواتهم حق مقدس ولا يجوز للولايات المتحدة أو احدى الولايات انكاره على أى مواطن أو الانتقاص منـه بسبب العنصر أو اللون أو الحالة الاجتماعية السابقة » .

وللمرة الثانية لم يأت فى القانون ذكر لجنس هؤلاء المواطنين الذين لا يجوز انكار حقهم فى الادلاء بأصواتهم أو الانتقاص منه . ورأت الآنسة سوزان أن الوقت قد حان للقيام بهجوم جديد جرىء .

وفى أول نوفمبر عام ١٨٧٢ دخلت سوزان وشقيقاتها جيلما وحنة ومارى الى مصنع أحذية كان مقراً للانتخابات فى منطقة روشستر . وخاطبت الآنسة أنتونى مفتش الانتخابات المشدوه قائلة : « نحن جئنا لنقيد أنفسنا فى جداول الناخبين » .

وقال المفتش : « ولكن هذا مستحيل ، ان القانون لا يعطى المرأة حق الانتخاب ، ومن ثم فلن يقبل قيد أسمائكن فى جداول الناخبين » .

وأخرجت الآنسة أنتونى من حقيبتها نسخة من دســتور الولايات المتحدة ، فتجمع حولها المفتشون الثلاثة وراحت تقرأ ببطء وبصوت مرتفع نص التعديلين الرابع عشر والخامس عشر ، وتحدتهم أن يبينوا لها نصــاً واحداً من نصوص الدستور استثنى النساء بصفة خاصة . وتلعثم الرجال ثم راحوا يتناقشون دون جدوى ، وأخيراً قبلوا تسجيل أسماء السيدات الأربع .

وابتهجت الآنسة أنتونى ، فقــد كان ما تحقق حتى ذلك الحين شيئاً طيباً ، ولكنها لم تتوقف عند هذا الحد بل خرجت الى شوارع المدينة تزف،

الخبر ، واستطاعت اقناع اثنتى عشرة سـيدة بتسجيل أسمائهن أعقبتهن بأربع وثلاثين سيدة أخرى . ولجأت الى عشرين محام حتى لهتدت أخيراً الى محام قبل أن يقدم اليها المساعدة اذا ما تعرضـت للمتاعب بسبب الادلاء بصـوتها .

ولكن حينما جاء يوم الانتخابات لم تكن لدى جميع السيدات الشجاعة الكافية للادلاء بأصـواتهن . ولم يدل بأصواتهن غير سـوزان برونيل وشقيقاتها ومعهن احدى عشرة صديقة جريئة .

وكان تصرفهن هذا هو موضوع العناوين الرئيسية فى جميع أنحـاء البلاد ، وتحدثت عنه بعض الصحف بروح متعاطفة مفعمة بالصداقة ، بينما تناولته صحف أخرى بروح عدائية . فأصدر رؤساء التحرير طبعات متلاحقة تضمنت تشـهيراً بالخمس عشرة سيدة وعلى الأخص زعيمتهن . وأعلنت احدى الصحف أن تابعات الآنسة أنتونى المتمردات لسن جديرات بحق الانتخاب . وظهرت عناوين تطالب بالقبض على سوزان ، وضرورة تقديمها الى المحاكمة لارتكابها جريمة الادلاء بصوتها ، بدعوى أنه لو قدر لهذا التصرف أن يمضى بغير عقاب فان كل امرأة فى أمريكا تسـتطيع من الآن فصاعداً أن تسجل نفسها فى جداول الناخبين وأن تدلى بصوتها .

وتحددت معالم المعـركة .. الحكومة لا تستطيع أن تتجاهل « ذبابة الدواب » أكثر من ذلك . وما دام من الصعب هشها فلا مناص من سحقها .

وفى يوم الاثنين ١٨ نوفمبر دق الضـابط كينى نائب مدير البوليس الاتحادى باب منزل أسرة أنتونى وقال : « يا آنسـة أنتونى ، معى اذن بالقبض عليك » .

ومدت سوزان اليه يديها وهى تقول : « ضع القيد فى يدى » .

وأعاد ضابط البوليس البائس قبعته العالية الى رأسه وتظاهر بعدم السمع ، ثم سارا معاً متجهين الى الناصية حيث ركبا العربة العامة التى ستقلهما الى مكتب المأمور الاتحادى . وحينما جاء محصل العربة لتحصيل الأجرة قالت له بصوت مسموع : « ان هذا السيد يقودنى الى السجن

فاطلب منه أجرة ركوبي » . وحملق ركاب العربة وتحول وجه الضابط كيني حتى أصبح بلون الجمبري المغلى !

وتعرضت الآنسة أنتوني الى عدد كبير من المعوقات القانونية قبل أن تجد نفسها فى مكتب المأمور . وهناك وجدت الأربع عشرة سيدة اللاتي أدلين بأصواتهن كما رأت مفتشي الانتخابات الذين سمحوا لهن بالادلاء بأصواتهن . ووجدت أيضاً محاميها السيد هنري سيلدن .

وبعد الاستماع الى حجج الطرفين أصدر مأمور الانتخابات قراره باحالة النساء الى المحاكمة أمام محكمة اتحادية ، وأمر بالافراج عنهن بكفالات قدرها ٥٠٠ دولار لكل متهمة .

وأسرع مراسلو الصحف ــ الذين كانوا موجودين ــ الى ابلاغ قصصهم الى صحفهم وكتب واحد منهم يقول : « ان أغلب هؤلاء الخارجات على القانون سيدات كبيرات تبدو عليهن الرصانة والاحتشام ، ولهن وجوه حالمة. انهن من ذلك النوع من الناس الذى يتمنى المرء أن يراه يقوم بالاشراف عليه وهو طريح الفراش ، وذلك لما يتحلين به من تقدير للمسئولية ومن صبر وحنان » .

ودفعت السيدات الأربع عشرة كفالاتهن ، وامتنعت سوزان ، وقدمت ملتمساً قانونياً يعرف باسم التماس اصدار أمر احضار شخص مسجون بغير محاكمة . وقد طلبت فى هذا الالتماس الافراج عنها . ونظر فى طلبها فى جلسة خاصة أمام احدى المحاكم الاتحادية بمدينة « الباني » . ولم تكتف المحكمة برفض التماسها فحسب بل وقضت بزيادة الكفالة من ٥٠٠ دولار الى ١٠٠٠

وبعناد شديد أعلنت الآنسة أنتوني تفضيلها البقاء فى السجن حتى يوم المحاكمة على دفع دولار واحد من هذه الكفالة ، ولكن محاميها السيد سيلدن خيب أملها بتصميمه على دفع الكفالة نيابة عنها وقال : « انى لا أطيق رؤية سيدة أحترمها تزج فى السجن » .

وتقرر اجراء المحاكمة فى شهر مايو بمدينة روشيستر من مقاطعة مونرو بولاية نيويورك ، وأصبح أمام الآنسة أنتونى فسحة من الوقت قدرها شهر ، فقررت استغلال هذه الفترة فى الاتصال بأهل المقاطعة لتشرح لهم الأسس التى بنت عليها حقها فى الادلاء بصوتها .

وزارت الآنسة أنتونى تسعاً وعشرين منطقة من مناطق مقاطعة مونرو ، وهى المناطق التى توجد بها مكاتب للبريد ، وتحدثت خلال جولتها تسعاً وعشرين مرة عن « مساواة جميع المواطنين فى الحقول الانتخابية » ، وفى نهاية كل حديث كانت تسأل جمهورها عما اذا كانوا يعتقدون أنهـا قد ارتكبت عملا من الأعمال التى تعتبر خروجاً على القانون ! .

وسمع ريتشارد كولى وكيل نيابة المنطقة بجولة الآنسة أنتونى فلم يخف غضبه الشديد وهو يصرح بأنه : قد أصبح من المستحيل العثور على محلف واحد نزيه فى مقاطعة مونرو . وردت سوزان على هذا التصريح بقولها : « وهل تسىء الى أمانة أعضاء هيئة المحلفين قراءة وتفسير دستور الولايات المتحـدة ؟ » .

وعندما اقترب موعد المحاكمة استصدر وكيل النيابة أمرا بتحـويل القضية الى مقاطعة أخرى بحجة أن الآنسة أنتونى قد « أفسدت » جميع سكان مقاطعة مونرو ، وتأجلت المحاكمة الى ١٧ يونيو لنظرها فى مدينـة كانانادايجوا بمقاطعة مونرو .

وبهذا القرار اتسع الوقت أمام الآنسة أنتونى للمرة الثانية اثنين وعشرين يوماً ، وانتقلت هى وصديقتها السيدة ماتيلدا جولسن كاج الى مقـاطعة أونتاريو وتحدثت واحداً وعشرين مرة عن موضوع واحد وهو « هل ادلاء المواطنة فى الولايات المتحدة بصوتها جريمة ؟ » ، وتحدثت السيدة كاج ست عشرة مرة عن أن تلك المحاكمة « محاكمة للولايات المتحدة لا لسوزان أنتونى » .

وكان يوم ١٧ يونيو ١٨٧٣ من أيام مدينة كانانادايجوا المشمسـة ،

وازدحمت غرفة المحكمة التى تقع فى الطابق العلوى بالقاضى والمحامى والمتهمة ومراسلى الصحف وأصدقاء المتهمة ، وكذلك بمؤيدي ومعارضى حقوق المرأة الذين جاءوا من جميع أنحاء البلاد .

وكانت سوزان ترتدى ثوبا حريريا بسيطا وقبعة صغيرة زرقاء ذات خمار منقط ، وقد جلست فى صمت بينما راح محاميها يوجه حديثه الى القاضى والمحلفين ويسوق حججاً منطقية اختيرت ألفاظها بعناية بالغة لمدة ثلاث ساعات .

قال السيد سيلدن : « ان للنساء مصلحة أكيدة فى اقامة حكم صالح وفى تدعيم هذا الحكم ، فهن كالرجال ملزمات باحترام القانون ، وهن كالرجال يعانين — وبنفس القدر — من القوانين الجائرة ، ويستفدن — وبنفس القدر — من القوانين الصالحة . ولا شك فى أن أبسط مبادىء العدالة تحتم منحهن — أسوة بالرجال — حق التعبير عن رأيهن فى اختيار رجال الحكم وواضعى القوانين » .

بعد أن انتهى السيد سيلدن من دفاعه ، أخذ وكيل النيابة يتحدث ساعتين كاملتين ، قال : انه حتى لو سلمنا بأن الآنسة أنتونى قد أدلت بصوتها بحسن نية واعتقاداً منها بأن الدستور يخولها هذا الحق ، فان ما تعتقده لن يقدم أو يؤخر فى حالتنا هذه ، فالحقيقة المؤكدة هى أنها بادلائها بصوتها قد خرجت فعلا على أحد قوانين الولايات المتحدة ، ومن ثم فهى مدانة بارتكاب جريمة .

وأخرج القاضى وارد هنت ورقة مكتوبة بخط اليد وراح يقرأ ما فيها على المحلفين ، وكانت مفاجأة مذهلة للآنسة أنتونى ، اذ كيف يعد القاضى رسالته الموجهة الى المحلفين قبل أن يسمع المداولات والمناقشات ؟

قرأ ذلك القاضى الضئيل الحجم ذو الشفاه الرقيقة بصوت جاف : « لو أن التعديل الخامس عشر تضمن كلمة « جنس » لكانت حجة المتهمة سليمة ، وكذلك فان التعديل الرابع عشر لا يعطى المرأة حق التصويت ومن ثم فان ادلاء الآنسة أنتونى بصوتها يعد خروجها على القانون » .

ثم واصل القراءة : « ان أحداً لا يجهل الحقيقة ، ومع أن جميع الحقائق معروفة لها الا أنها أخذت على عاتقها أن ترسى من تلقاء ذاتها مبدأ ... » .

ثم ختم رسالته بالكلمات التالية : « ويجب أن نلفت عناية المحلفين الى ضرورة الحكم بادانتها » .

وقفز المحامى سيلدن على قدميه وقال : « يجب أن تفسح للمحلفين الفرصة التى تسمح لهم بالوصول الى قرارهم ! » .

ووجه القاضى هنت حديثه الى المحلفين بقوله : « ان المشكلة بجميع جوانبها مسألة قانون ، وما دام الأمر كذلك فاننى أقرر أن التعديل الرابع عشر الذى تستند اليه الآنسة أتونى لا يعطى لها حقاً فى التصويت ولذلك أوجه نظركم الى وجوب الاهتداء الى حكم بالادانة » .

وللمرة الثانية هب هنرى سيلدن واقفاً طالباً أن يترك للمحلفين الفرصة التى تسمح لهم بالوصول الى قرارهم .

وتجاهله القاضى ثم التفت الى كاتب المحكمة : « خذ الحكم » ، وعلى الفور قال الكاتب : « أيها السادة المحلفون ، استمعوا الى حكمكم كما سجلته المحكمة ، أنتم تقولون ان المتهمة مدانة بالجريمة التى قدمت للمحاكمة من أجلها ، وهذا هو قولكم جميعاً » .

وقال المستر سيلدن : « اننى أطالبكم بسؤال كل محلف على حدة » .

فالتفت القاضى هنت الى هيئة المحلفين الذين لم ينبس أحدهم ببنت شفة وقال : « أيها السادة أعضاء هيئة المحلفين تستطيعون الآن الانصراف » .

وفى اليوم التالى طالب المستر سيلدن باعادة المحاكمة على أساس أن الآنسة أتونى قد حرمت من حقها فى أن تحاكم بواسطة المحلفين ، ولكن القاضى هنت رفض الطلب ، وأمر الآنسة أتونى بالوقوف وسأل : « هل لدى السجينة ما تبرر به طلبها عدم النطق بالحكم ؟ » .

وقالت الآنسة أتونى : « أجل يا صاحب الفخامة ، لدى الكثير . ففخامتكم بطلبكم الحكم بادانتى قد دست تحت قدميك على كل مبدأ

أساسى من مبادىء حكومتنا ، وتجاهلت حقوقى الطبيعية والمدنية ، كما تجاهلت حقوقى السياسية والقضائية » .

وقال القاضى هنت : « ان المحكمة ترفض أن تسمع للمرة الثانية نفس الحجج التى قدمها محامى السجينة طوال ساعات ثلاث » .

ولكن سوزان استمرت فى الحديث : « كما تشاء يا صاحب الفخامة ، ولكننى لا أناقش المسألة ، بل أقرر بكل بساطة الأسباب الداعية ــ احتراماً للعدالة ــ الى عدم النطق بالادانة » .

« فانكاركم حقى فى التصويت كمواطنة ، هو انكار لحقى فى الرضى كواحدة من المواطنين ، وهو أيضاً انكار لحقى فى التمثيل بوصفى من دافعى الضرائب ، وحقى فى أن أحاكم بواسطة محلفين من أقرانى باعتبارى خارجة على القانون ، وقصارى القول هو انكار لحقى المقدس فى الحرية والحيــاة والتملك ... » .

وصاح القاضى هنت مقاطعاً : « ان المحكمة تمنع السجينة من مواصلة مثل هذا الكلام » .

وواصلت سوزان الكلام : « ولكنك لا تملك أن تحرمنى حتى من هذا الحق الهزيل والوحيد ، وهو حق الاحتجاج على ذلك الهجــوم العنيف الموجه ضد حقوقى كمواطنة ... » .

« ان المحكمة تصر على أن السجينة قد حوكمت طبقــاً للاجراءات الواجبة التى نصت عليها القوانين » .

فقالت الآنسة أنتونى : « أجل يا صاحب الفخامة ، ولكنها اجراءات قانونية وضعها الرجال ، ويفسرها الرجال ، ويوجهها الرجال لمصــلحتهم وضد النساء .. » .

وقاطعها القاضى هنت بصوت تجلت فيه نبرات الغضب المكبوت : « ان المحكمة تأمر المتهمة بالجلوس والتزام الصمت » .

ولكن الآنسة أنتونى لم تلتزم الصمت : « عندما جىء بى لمحاكمتى

أمام فخامتكم ، كنت أتوقع أن أجد هنا مرونة وتحرراً فى تفسير الدستور ، ولكن الآن وبعد أن أصبحت أفتقد العدالة فاننى أطالبكم لا باستخدام الرأفة ولكن بتوقيع أشد العقوبات » .

وصاح القاضى « ان المحكمة مصممة ... » .

وجلست الآنسة أتونى .

فقال القاضى « على المتهمة أن تقف » .

ووقفت الآنسة أتونى .

« حكمت المحكمة على المتهمة بغرامة قدرها ١٠٠ دولار مع الزامها بمصاريف الدعوى » .

واعترضت الآنسة أتونى : « لن أدفع سنتاً واحداً من عقوبتك الظالمة ، ولسوف أواصل نضالى بحماسة واصرار لحث النساء على التمسك بالمثل الثورى القديم « ان مقاومة الطغيان طاعة للخالق » .

فأجاب القاضى هنت : « سيدتى ان المحكمة لن تصدر حكمها بالادانة حتى تدفعين الغرامة » .

ونهض القاضى وانتهت المحاكمة .

٣

حركت المحاكمة مشاعر جميع الناس ... حتى الذين لم يقروا الآنسة أتونى على تصرفاتها ، فقد أغضبتهم طريقة القاضى هنت فى استعجال المحلفين على اصدار قرارهم بالادانة ، واتفقوا على أن القاضى الذى يتهاون فى حق أى متهم فى أن يحاكم محاكمة عادلة أمام المحلفين ، انما يسىء اساءة بالغة الى حرية كل مواطن فى هذه البلاد .

وأشار المحامون الى براعة القاضى هنت بامتناعه عن النطق بحكم الادانة ، وهو يعنى بذلك اما أن تدفع الغرامة أو تسجن ، فلو أنه أصدر

حكماً بحبس الآنسة أنتونى لكان لها الحق فى استئناف الحكم أمام المحكمة الفيدرالية العليا . ولكن الاستئناف فى تلك الحالة كان مستحيلا وهو ما أراده القاضي هنت ، وكان أقصى ما تستطيعه الآنسة أنتونى هو الامتناع عن دفع الغرامة وانتظارها ما سيحدث بعد ذلك .

ورفضت الآنسة أنتونى أن تدفع الغرامة ، ولكن لم يحدث شيء ولم تقدم الحكومة صديقاتها الأربع عشرة للمحاكمة ، بل أخذت العروض بمساعدات مالية تنهال على سوزان ، كما تلقت الآلاف من خطابات التأييد والعطف التى بعث بها معارف ومجهولون من جميع أنحاء البلاد ، مما شد أزرها ، ورفع معنوياتها ... وانطلقت تواصل العمل ، وهى أكثر اصراراً وتأكداً من أن السبيل الوحيد لتحرير المرأة هو اجراء تعديل دستورى جديد .

وسنة بعد أخرى طرحت على المجالس التشريعية لعدد من الولايات مشروعات قوانين بمنح المرأة حقوقها السياسية ، وقد أجازت بعض المجالس هذه القوانين ورفضها البعض الآخر ، وقد منحت الآنسة أنتونى هذه القوانين والمدافعين عنها تأييدها القلبى ، أما هى فكرست كل جهودها من أجل اصدار قانون اتحادى يكون ملزماً لجميع الولايات . ورأست سوزان المؤتمرات السنوية بوصفها رئيسة للجمعية الأمريكية للمطالبة بالحقوق الانتخابية للمرأة ، وظلت عاماً بعد آخر تستحث الجهود على ادخال تعديل على الدستور يعترف للمرأة بحقها فى الانتخاب .

وهنا نجد أن من الصعب أن يحدد المرء تماماً تلك اللحظة التى يتحول فيها التيار ، ولكن مع مرور الزمن ، أصبحت الآنسة أنتونى تحاط بهالة من الاعجاب والاحترام . وانقلب الخذ وحلت حفلات التكريم محل الطماطم الفاسدة التى كانت ترمى بها فيما مضى ، وسعى اليها رجال السياسة يطلبون منها النصح ، ودعتها الصحف لكتابة الافتتاحيات ، وكلما كانت تقف لتتحدث فى سوق شيكاغو الدولى الذى أقيم فى صيف ١٨٩٣ ، كان

الرجال والنساء على السواء يعتلون المقاعد ، ويلقون بالقبعات والقفازات والمناديل فى الهواء ، ويهللون اعجاباً حتى قبل أن تبدأ الكلام ، فقد أصبحت تلك السيدة الأنيقة — ذات الشعر الأشيب ، والشال الأحمر — رمزاً لحركة النضال من أجل حقوق المرأة .

وكتبت احدى صحف واشنطن تقول : « لم يعلن مقدم الربيع الى واشنطن بظهور طائر أبى الحناء ولكن بظهور شال الآنسة أنتونى الأحمر اللون » .

وفى عام ١٩٠٠ كانت الآنسة أنتونى قد بلغت الثمـانين من العمر ، فتنحت عن رئاسة جمعية المطالبة بحقوق النساء لسيدة أصغر منها سناً وهى السيدة « كارى تشابمان كات » . وختمت الآنسة أنتونى حديثاً وجهته الى جيش النساء الذى سيواصل حمل الرسالة بقولها « ان الفشل مستحيل » .

وكانت على حق ، ففى السادس والعشرين من أغسطس عام ١٩٢٠ أى بعد مرور قرن على مولد سوزان أدخل التعديل التاسع عشر على الدستور وكثيراً ما يطلق عليه اسم « تعديل سوزان ب . أنتونى » وقد جاء فيه :

« ان حق جميع المواطنين فى الولايات المتحدة فى الادلاء بأصواتهم حق مقدس ، ولا يجوز للولايات المتحدة أو لاحدى الولايات انكاره على أى مواطن أو الانتقاص منه بسبب الجنس » .

ولم تطل الحياة بالآنسة أنتونى حتى ترى بنفسها ذلك النصر النهائى ، ولكنها شاهدت الكثير من التغيرات التى أثلجت قلبها المقاتل العجوز ، ففى نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى ، كانت النساء قد أصبحن قادرات على ركوب الدراجات بحرية ، كما أخذ بعضهن يلبس الجونلات القصيرة بل والسراويل النسائية . وفى ذلك تقول الآنسة أنتونى : « كنت أحس بسعادة غامرة كلما وقعت عيناى على امرأة تركب دراجة . فقد كان هذا العمل وحده كفيلا باشعارها بقدرتها على الاعتماد على النفس والاستقلال بمجـرد أن تعتلى الدراجة وتندفع بها الى الأمام دون حرج أو ازعاج . وبالنسبة لى فقد كان هذا المنظر يمثل الأنوثة المتحررة الطليقة » .

وفى ذلك الوقت أيضاً كان قد أبيح للفتيات الالتحاق بمدارس البنين ، كما فتح عدد كبير من الكليات أبوابه أمام الطالبات ، ولكن الآنسة أنتونى ما كانت لتقنع بأقل من تأكيد حق الفتيات فى الالتحاق بجميع الكليات بلا استثناء .

وركزت الآنسة أنتونى نيران مدافعها على جامعة مدينتها روشستر . فعمدت الى مضايقة الأمناء سنوات طويلة حتى رضخوا فى النهاية ووافقوا على قبول عدد محدود من الطالبات بشرط تقديم منحة للجامعة قدرها ٥٠,٠٠٠ دولار خلال سنة واحدة .

وبحماستها المعتادة شكلت سوزان لجنة لجمع التبرعات ، وبدأت اللجنة فى الاتصال بالأثرياء من رجال الأعمال ، وخريجى الجامعة وأمنائها ، وبدأت التبرعات تتجمع بحماسة فاترة فقد كان هؤلاء الرجال ممن لا يؤمنون بفكرة قبول طالبات فى الجامعة .

واستحوذت أمور أخرى على اهتمام سوزان ، حتى مات فجأة شقيقها الصغير « ميريت أنتونى » فسافرت سوزان الى كانزاس لتشييع جنازته . وما أن عادت الى روشستر حتى تلقت أنباء غير سارة من سكرتيرية اللجنة التى اكتشفت أن مبلغ المنحة ما زال ينقص ثمانية آلاف دولار ، ولم يبق من الزمن غير يوم واحد كآخر موعد لتقديم المنحة .

وأمضت سوزان ليلتها ساهرة ترسم خطوط حملة لجمع هذا المبلغ ، وفى الصباح بدأت حملتها وفى صحبتها شقيقتها مارى قبل أن يتناول أحد طعام الافطار .

كانت مارى قد أوصت لجامعة روشستر بمبلغ ٢٠٠٠ دولار بعد مماتها ، فنصحتها الآنسة أنتونى « ادفعى المبلغ الآن ، ولا داعى للانتظار والا فلن يسمح للفتيات بالالتحاق بالجامعة بعد الآن » .

ووافقت مارى ، فركبت الآنسة أنتونى عربتها ودارت على بيوت أصدقائها ومعارفها ، وتعهد قسيس بدفع ٢٠٠٠ دولار ، وساهم صديق

قديم بألفين ، ولكن ذلك النهار الساخن من أيام سبتمبر كان قد أخذ فى الانصرام ، فراحت مارى تدق أبواب المتاجر والمكاتب والبنوك والمصانع ، ولكن جهودها ضاعت سدى فلم تحصل على دولار واحد .

وفى غمرة اليأس توجهت الى بيت السيد صامويل وايلدر وهو صديق قديم سبق أن ساهم بمبلغ آخر فى بداية السنة ، وشرحت له الآنسة سوزان حاجتها بسرعة ، وكان مجلس الأمناء منعقداً بالفعل فى ذلك الوقت للنظر فى سحب العرض ، وسوزان ما زالت فى حاجة الى ٢٠٠٠ دولار .

وفى عصر ذلك اليوم ، راحت سوزان تسابق الريح ، وفى يدها ضمانة السيد وايلدر ، ورأى الأمناء الآنســة أنتونى وهى تنــدفع الى غرفة الاجتماع ، فاشرأبت أعناقهم تطلعاً ، وارتفعت حواجبهم دهشة وذهولا ، لقد كان من الواضح أن أحداً لم يكن يتوقع ظهورها .

وقدمت الآنسة أنتونى تعهداتها بدفع الثمانيــة آلاف دولار ، وهى تنتفض من شدة الانفعال . وقام الأمناء بفحص اسم كل ضامن ومبــلغ ضمانته بعناية ودقة بالغــين . ثم راحوا يتهامسون فيما بينهم ، وأخيراً قال الرئيس للآنسة أنتونى : « اننا لفى أشد الأسف ، فضــمانة السيد وايلدر غير مقبولة ، ونحن نعرف أن حالته الصحية غير مطمئنة ، واذا مات الآن فان مزرعته لا تساوى الألفى دولار » .

وكاد يطير لب الآنسة أنتونى ولكن للحظات قصار ثم قالت : «حسناً أيها السادة فمن الخير أن أعترف لكم بالحقيقة ، اننى ضامنة هذا المبلغ وقد طلبت من السيد وايلدر أن يعيرنى امضاءه ، حتى لا تقام أى صلة بين قضية التعليم المشترك ومسألة حقوق المرأة ، مما قد يسىء الى القضية الأولى ، وهأنذا أقدم اليكم وثيقة التأمين على حياتى ضمانة لمبلغ الألفى دولار » .

ولم تمض بضع ليالى حتى كان صالون أسرة أنتونى قد ضاق بمن فيه من المهنئين ، ومن بينهم الفتيات اللاتى كن ينتظرن دخول الجامعة ، وقد جئن ليعبرن لسوزان عن فرحتهن وتقديرهن ، بينما كانت سوزان تجلس

صامتة على غير العادة وقد علا الشحوب وجهها ثم نهضت من مقعـدها المألوف ، وتركت الغرفة . وبين الحاضرات ، كانت شقيقتها ماري تراقبها بقلق فاستأذنت وتبعتها الى الطابق الأعلى ، فوجدتها ترقد فوق فراشها وقد غابت عن وعيها . وكانت تلك الأزمة هي بداية النهاية .

منذ ذلك اليوم لم تعد سوزان الى كامل صحتها ، ولكنها عاشت بعد تلك الحادثة لعدة سنوات . وحينما أحست بأن صحتها تسمح لها بالخروج طلبت منهم أن يصحبوها الى فناء الجامعة ، وبحروف مهتزة متراقصة كتبت في تلك الليلة تقول : « لم يعد ذلك الفناء أرضاً محرمة على بنات مدينتنا ، وما أجمل أن يحس المرء بأن الأبواب العتيقـة المغلقـة تدور الآن على مفصلاتها لتسمح لفتيات المدينة بالدخول ... ولكن هل ستحترم العهود والوعود التي قدمت لهن ! ؟ » .

جین آدامز

Jane Adams

أحب جارك كنفسك

١

فى عام ١٨٤٤ تزوجت سارة بجون آدامز ، وهى الفترة التى انتشرت فيها بين الشباب روح المغامرة ، والتطلع نحو آفاق جديدة ، فأمضيا شهر العسل وهما فى طريقهما الى الغرب بحثاً عن مكان جديد يتخذانه مقاماً لهما ... وعندما وقعت أعينهما على الريف فى شمال الينوى بمروجه المنبسطة الخضراء ، وتلاله المتلاحقة أدركا أنهما قد نالا بغيتهما ، ووجدا الهدف المنشود .

واشترى جون آدامز طاحونة على شاطىء نهر « سيدار » فى قرية « سيدار فيل » . وسرعان ما تدفق عليه فلاحو المنطقة لطحن غلالهم . ومع مرور السنين ازدادت أسرة آدامز عدداً وثراء . وأنشأ السيد آدامز خطاً للسكة الحديد فى قرية سيدارفيل . ثم أصبح صاحب بنك وعضواً بمجلس الشيوخ ، فحظى باحترام كبير حتى لقبه جيرانه « بملك المقاطعة المهذب » .

وفى السادس من سبتمبر عام ١٨٦٠ رزق « آل آدامز » بلورا جين طفلتهما الثامنة ، وكانت طفلة ضعيفة البنية ولكن كتبت لها الحياة ، وبعد مولدها بعامين نقلت السيدة آدامز الى فراشها لتلد من جديد ولكنها ماتت هى ووليدها .

وعاشت جين محرومة من حنان الأم فمنحت كل حبها وعواطفها لأبيها ،

فكانت تسير خلفه ككلب صغير وهى تحاول أن تقلد أساليبه وسلوكه وعاداته . وكان السيد آدامز أنيقاً دمث الأخلاق الى حد دفع چين الى الاعتقاد بأن كل من يقع بصره على أبيها وهو فى الشارع أو فى الكنيسة لا يملك الا أن يعجب به من أول نظرة . وقد كتبت فيما بعد تقول : « كنت أدعو الله من أعماقى ألا يقول أحد لمن لا يعرفوننا أن تلك الطفلة الدميمة الهزيلة التى فرض عليها تقوس ظهرها امالة رأسها فى اتجاه واحد ... هى ابنة ذلك الرجل الجميل » .

ومن وقت لآخر ، ولسنين طويلة ، كان الكثيرون من سكان المناطق المجاورة لقرية سيدارفيل يتوافدون لزيارة مدرسة الأحد التى يقوم فيها السيد آدامز بتدريس الكتاب المقدس . وفى تلك الأوقات كانت چين وهى فى طريقها الى الكنيسة تتعمد أن تتخلف بضع خطوات وراء أبيها حتى لا يعرف أحد أنها ابنته ... ، وتلحق بعمها جيمس آدامز ، الذى كان يرخى عينيه بحنان أبوى ويقول : « اذن فأنت ستسيرين اليوم معى ؟ » .

ولعله لم يكن من الانصاف للعم چيمس أن تسير بجواره تلك البطة الصغيرة القبيحة ، ولكنها كانت تعزى نفسها بقولها « وعلى أى حال فان ابنته ليست ست الحسن والجمال » .

وحينما بلغت چين الثامنة من العمر ، تزوج جون آدامز للمرة الثانية ، فجاء اليها هذا الزواج بطفل فى مثل سنها تقريباً هو چورچ ابن زوجة أبيها . وقد أمضى الطفلان معاً أوقاتاً سعيدة فى اللعب حول البيت الأنيق المكون من عشر غرف واسعة ، وقد شيده السيد آدامز فوق منحدر يطل على نهر سيدار . وقد اكتسى أحد التلال المحيطة بالبيت بأشجار الكمثرى النرويجية التى حمل السيد آدامز بذورها معه عندما جاء من بنسلفانيا للمرة الأولى فى عام ١٨٤٤ ، بينما يتدفق جدول الطاحونة تحت سفح منحدر وعر لتل آخر يبلغ حداً من الانحدار يجعل من العسير تسلقه ، ثم كهوف ومغارات ضخمة من الحجر الجيرى يبلغ ارتفاع بعضها أكثر من

الثلاثين قدماً ، وقمينة مهجورة كانت تستخدم فى حرق القواقع والأحجار الجيرية للحصول على الجير الحى .

ثم أصبح السيد آدامز يملك منشراً للأخشاب الى جانب طاحونة الغلال . وكان الطنين أشبه بحيوان هائل يقضم كتل الخشب قضمات كبيرة حادة ويقذف النشارة من بين تروس أسنانه المعشقة . وفى بعض الأوقات كان يحلو لچين أن تلعب لعبة مثيرة فتمتطى جذع الخشب وهو يقترب من فكى ذلك الموت المزمجر لتقفز من فوقه فى اللحظة المناسبة والا شطرها المنشار شـــطرين .

ولم تكن لطاحونة الدقيق هذا القدر من الاثارة والانفعال الذى يحدثه المنشر ، ولكن چين أحبتها أكثر مما أحبت المنشر بما تحتــويه من أركان مظلمة من تراكم الغبار تنتظر من يكتشفها ، وصوامع تستطيع عروستها أن تمارس فيها شئون منزلها ، والمخزن السفلى الممتلىء بدقيق لا يقل عن الرمال صلاحية للعب وخاصة اذا بلل بقليل من مياه النهر .

وفى بعض الأحيان كان السيد آدامز يتوجه الى المدينة لقضاء بعض الأعمال ويأذن لچين بمرافقته . وكان والدها رئيساً « للبنك الأهلى الثانى لمدينة فريبورت » حيث كانا غالباً ما يقطعان الشارع الرئيسى فى المدينة ، فتمتع چين عينيها بمنظر المحلات كما تمتع أذنيها بضوضاء المدينة ، لقد كانت تلك المدينة ذات العشرة الآلاف نسمة تبدو للفتاة الريفية الصغيرة وكأنها دوامة من النشاط والحركة والاثارة .

وذات يوم اتجه السيد آدامز وابنته چين بحصانه ودوكاره الى مصنع يقع فى منطقة من المدينة لم تكن صورتها تخطر يوماً على بال چين ، فقالت « هذه البيوت صغيرة ومخيفة وشديدة الالتصاق بعضها البعض » .

فرد عليها أبوها « يا صغيرتى ان الناس لا يعيشون فى الأكواخ المتداعية بمحض اختيارهم ، ولكنهم مجبرون على ذلك لأنهم لا يستطيعون السكن فيما هو أفضل منها » .

وامتلأ قلب چين بالشفقة والاحساس بالمشاركة مع هؤلاء البؤساء الذين أتعسهم الحظ بسكنى تلك المساكن البشعة ، وكانت جميع البوادر والمظاهر توحى بأن العالم كله قد أدار ظهره لهؤلاء المساكين ، وقالت : « عندما أكبر سأعيش فى بيت كبير ، ولكنه لن يقام بين بيوت أخرى كبيرة ، بل بين منازل صغيرة مخيفة مثل تلك المنازل » .

وكانت چين وچورچ يشعران بالسعادة كلما راح والدهما يستعيد أمامهما ذكرياته عن ابراهام لنكولن ، فقد جمعتهما الصداقة أثناء خدمتهما بحكومة ولاية الينوى . وكان السيد آدامز شديد الاعجاب بلنكولن بسبب أمانته وحبه للدعابة ، وأكثر من ذلك بسبب آرائه فى الديموقراطية ، خاصة وأن السيد آدامز كان يكره الطغيان والظلم فى كل صورة وفى أى مكان وزمان .

وفى بعض الأحيان كان السيد آدامز يتوجه الى درج مكتبه ليخرج حزمة صغيرة من خطابات لنكولن ، فيستمتع الطفلان بالنظر الى تلك الخطابات التى كانت تبدأ دائماً بعبارة واحدة لا تتغير « عزيزى شبيهى ، د . د . آدامز » .

وكثيراً ما كان الأب يحدثهما عن نوادر لنكولن ، فروى لهما قصة ذلك الرجل الذى ذهب الى لنكولن وقال له : « اننى أكثر الناس سذاجة فى مقاطعة ستيفنسون يا سيد لنكولن ، ومع هذا يقول الناس لى انى أشبهك » .. فأجاب لنكولن يقول برصانة ووقار : « قد يكون الأمر كذلك ، قد يكون ... ولكننى لا أظن أن لى مثل هذا الوجه الصفيق ! » .

وكان لنكولن مغرماً بالفوازير فكان يقول : « اذا اعتبرت ذيل الكلب ساقاً فكم ساقاً للكلب ؟ خمس ؟ كلا ، لأن اعتبار ذيل الكلب ساقاً لا يجعل منه ساقاً بالفعل ! » .

وانتخب لنكولن رئيساً للولايات المتحدة فى نفس السنة التى ولدت فيها چين ، واندلعت الحرب الأهلية وهى لم تتجاوز شهرها الثامن . وقد أخبرها والدها عندما كبرت بمساهمته فى تنظيم وتسليح كتيبة من الجنود أطلق عليهم

« حرس آدامز » ، ووصف لها كيف، كانت الطاحونة تعمل ليل نهار فى طحن الدقيق لتوفير الخبز لجيش الاتحاد .

وفى يوم من أيام شهر أبريل عام ١٨٦٥ عادت چين الى البيت بعد اللعب لتجد أعمدة البوابة البيضاء مكللة بالأعلام الأمريكية ومجللة بالسواد ، فقطعت الممشى المغطى بالحصى فى غمضة عين واندفعت الى البيت ، وهناك أبلغها أبوها بصرع لنكولن ، وقال والدموع تسيل على وجنتيه « اليوم مات أعظم رجل فى العالم » ، وذهلت چين ، فما كانت تتصور أن الكبار يمكن أن يذرفوا الدمع كالأطفال !

ولم يكن بكاء الكبار هو الشىء الوحيد الذى تعلمته من أبيها الحبيب ، فقد تعلمت منه أيضاً أشياء أخرى كثيرة وعلى قدر كبير من الأهمية ، فقد كان السيد آدامز يؤمن بأن للأطفال ــ باعتبارهم جزءاً من الجنس البشرى ــ الحق كل الحق فى مشاركة الكبار معرفة الحياة ، فناقش مع ابنته الكثير من الأمور والمسائل الجادة ، وقد سألها ذات مرة « هل من الخير أن ترتدى عباءة جديدة أنيقة خصيصاً ليوم الأحد وأنت تعلمين ما سيثيره هذا الزى من تعاسة وشقاء فى نفوس غيرك من الفتيات ؟ »

كما سمح لها أيضاً أن تسأله فى كل ما يثير حيرتها من الأمور مثل : « لماذا يتمتع بعض الناس بالثراء بينما يعيش غيرهم حياة صعبة أقسى من صعود درجات سلم تكاد تكون عمودية راسية ؟ » .

أو « لماذا يأكل بعض الناس الخبز مغموساً بالدموع » ؟

أو « هل صحيح أن ما يصيب المرء مكتوباً عليه ؟ » .

عامل السيد آدامز چين كما لو كان عقلها الصغير شد لعقله الناضج الراجح . وقد أثر هذا السلوك فى حياتها تأثيراً بالغاً وعلى الرغم من أنه لم يكن بالطبع يعرف اجابة كل سؤال ، فلم يخجل من الاعتراف لها بهذه الحقيقة . وقد أفهمها أن مظالم الحياة لا يمكن تقويمها بالمساواة فى الملبس

لأن هناك ما هو أهم بكثير من الملابس ، فهناك مثلا الفرصة المتكافئة فى التعليم ، كما أن اختلاف جنسيات البشر أو لغاتهم أو معتقداتهم لا ينبغى أن يحول دون اقتسامهم الآمال الكبيرة والرغبات الواحـــدة « وكفاحهم المشترك من أجل تحقيق تلك الآمال » . وقد تعلمت چين من أبيها أيضاً : « أن الأشياء التى تجعل منا بشراً متماثلين أقوى من الأشياء التى تجعل منا كائنات مختلفة » .

وقد قال لها السيد آدامز : « والأهم من كل ذلك هو أن يكون المرء أميناً مع ذاته مهما حدث ، ومن المهم أن لا يدعى الانسان فهم ما لا يفهمه » .

وكان هناك شىء واحد فقط لم تعرفه چين وهو « هل يحبها أبوها حقاً وهل يمكن أن يحب ابنته تلك الفتاة الدميمة ذات الظهر المقوس ؟ » وفى كل مرة يطوف برأسها هذا الخاطر كانت تستعيد ذكريات نزهاتها وأحاديثها الطويلة التى استمتعت بها مع والدها فيبدو لها أن مجرد التفكير فى ذلك الخاطر قلق صبيانى ينم عن الغباء ، غير أن شبح ذلك الوهم الأسود كان يطاردها من حين لآخر « أليس من الجائز أن أباها يحس بالخجل منها ولكنه يكتم احساسه هذا ؟ أليس من الجائز أنه لا يحب الاعتراف بأنها ابنتـــه أمام الغرباء ؟ »

غير أنه فى عصر يوم من الأيام كانت چين تسير فى ذلك الشارع الرئيسى الكثير الحركة بمدينة فريبورت حين رأت أباها يخرج من البنك ، فحبست أنفاسها وراحت تنظر ، كان الشارع مزدحماً بالغرباء وأبوها فى مأمن من أن يعرف أحد من هى ، وفى تلك اللحظة بالذات لمحها السيد آدامز فى الزحام فرفع لها قبعته الحريرية العالية وحياها بابتسامة تنم عن السعادة وخصها بانحناءة لطيفة ، فانكمش شبح الخـــوف الذى كان يطاردها ثم اختفى الى الأبد .

٢

فى سن السابعة عشرة التحقت چين بمدرســة روكفورد وهى احدى المدارس الداخلية وكانت تلك المدرسة عبارة عن مبنى صغير بسيط ، ولكن العمل بداخله كان كثيراً . فالطالبات ملزمات فضلا عن التعليم بتنظيف غرفهن والقيام بجميع الأعمال المنزلية اليومية ، ودرست چين فى تلك المدرسة المواد التى كانت تقدم للفتيات الصغيرات فى ذلك الحين ، وهى الفلسفة العقلية والأخلاقية ، والعلم الطبيعى ، والتاريخ القديم ، والأدب واللغات القديمة ودارت بينها وبين زميلاتها مناقشات لا تنتهى حول ما ينبغى أن يفعلن بعد الانتهاء من الدراسة . وقد أبدت الكثيرات منهن رغبتهن فى القيام بأعمال التبشير حتى ينقلن المعتقدات الدينية والأعمــال الصالحة الى الشــعوب الأخرى ، وحاولن اقناعها باختيار هذا الطريق ولكنها تشبثت بعناد بأفكارها الخاصة ، فقد كانت ترغب فى أن تكون طبيبة « وأن تعيش مع الفقراء » .

وفى الصيف التالى لانتهائها من الدراسة ، وفيما هى وچورچ يستمتعان مع أبويهما برحلة على شاطىء بحيرة سوبريور ، سقط السيد آدامز فجأة مريضاً ثم مات .

وانهالت على الأسرة خطابات التعزية من جميع أنحاء الولاية ، وكتب أحد المحررين فى جريدة شيكاغو تايمز يقول : « اننى أعرف رجالا كثيرين لم يقبلوا فى حياتهم أية رشوة ، ولكننى أشهد بأن أحداً لم يجرؤ على تقديم الرشوة للسيد جون آدامز فقد كان الأشرار يتجنبونه بالغريزة » .

وكان موت السيد آدامز ضربة قاضية لچين بنت الواحد والعشرين ربيعاً ، وقد حاولت أن تستعيد مرحها ولكن جهودها راحت أدراج الرياح . وفى يوم حزين من أيام شهر أغسطس عام ١٨٨١ ، اصطحبها صديق طبيب

فى نزهة ، وصعد البروفيسور بلاسديل والفتاة الحزينة ببطء أحد التلال ، وراحا يطلان على حوارى قرية سيدارفيـل الصغيرة الضيقة ومداخنها المألوفة ، فأدركت چين فجأة أن حزنها ليس الا قطرة ضئيلة « فى بحر ذلك الحزن المصطخب تحت أقدام الانسان » وأن جميع مخلوقات الله تعانى من المتاعب ، كما يواجه كل انسان الموت ، ولكن فى اقتسام التجارب المشتركة ومساعدة الانسان لأخيه الانسان يستطيع البشر أن يعيش بسلام ، وأن ترفرف على الجميع نسمات المحبة والمودة والعزاء .

ثم ذهبت چين الى فيلادلفيا حيث أمضت الشتاء التالى فى كلية طب للفتيات ، وعاودتها آلامها القديمة التى لازمتها فى عمودها الفقرى فأجريت لها جراحة ، ظلت بعدها طريحة الفراش ستة شهور . وقد نجحت الجراحة فى أن تعيد الاستقامة الى ظهرها ولكنها خرجت منها بأعصاب متوترة .

ونصحها طبيبها بأن تصرف النظر عن ممارسة مهنة الطب كما نصحها بالسفر الى أوروبا لمدة عام أو عامين بقوله : « من الأفضل لك أن تزورى معارض الفن ، وتشاهدى الأوبرات ، وأن تستغلى وضعك فى الحياة ، وتتمتعين تمسك بمباهجها » .

ويا للمسكينة چين ! انها لم تكن مسكينة لحاجتها الى المال فقد كان لديها من المال ما يسمح لها بالتنقل والترحال والاستمتاع ، ولكن لأن روحها لم تكن حتى ذلك الوقت قد عرفت الاستقرار بعد . فقد كانت چين تكره أن تكون عديمة الفائدة ، أو أن تحيا الحياة العادية التى كانت تعيشها سيدات القرن التاسع عشر من ذوات الحسب والنسب ممن يمضين حياتهن جالسات فى الصالونات يقرأن أو يطرزن ، أو عازفات على البيانو يغنين أغنيات رقيقة بينما الحياة الحقيقية تمر بهن مر الكرام ، كما كانت تؤمن بأنها لا بد وأن تكون ذات فائدة لانسان ما ... أى انسان ! .

حتى ذلك الوقت لم تكن چين قد اكتشفت حقيقة نفسها أو تعرفت على رغباتها ، أو حددت مكانها فى الحيـاة ، وهكذا خرجت فى عام ١٨٨٣ فى

مجموعة صغيرة تتكون من ثمانية أفراد فى أول رحلة لها الى أوروبا ، فتوجهت أولا الى أيرلندا ومنها الى اسكتلندا ، ثم الى لندن وهناك أمضت المجموعة الوقت فى استجلاء مشاهد ومعالم المدينة .

كانت لندن فى تلك الأيام مدينة صناعية صاعدة تنمو بسرعة ، وتزدحم بجموع من البشر الذين يتدفقون عليها من الريف لسد الحاجة المتزايدة الى الأيدى العاملة . وفى ذلك الوقت كان المئات من عمال المصانع يتقاضون أجوراً لا تكاد تسد الرمق ، ومئات أخرى من البشر تحيا كالنباتات التى اقتلعت من جذورها ولا تجد فى الأرض الصخرية غذاء تقتات عليه . وكان كل هؤلاء الناس يتكدسون فى أفقر الضواحى حيث يعتمد وجودهم على التقاط كل شىء وأى شىء يستطيعون التقاطه .

وشاهدت چين — أينما ذهبت — المبانى الفخمة والحدائق الجميلة ، ولكن رأت أيضاً التعاسة « والمعاناة » والعوز الانسانى بأبشع صوره . وفى يوم سبت اصطحبهم أحد المبشرين فى رحلة لمشاهدة بعض مناظر لندن . وتوجه وبرفقته المجموعة الصغيرة الى منطقة مزدحمة بالمساكن القذرة فى حى ايست اند بلندن ليشاهدوا مزاداً لبيع الخضر والفاكهة . ولم تكن تلك الفاكهة والخضروات الا مخلفات السوق العمومى ، بعد أن أصابها الذبول والفساد وأصبح من المستحيل بيعها فى أى مكان غير هذا الحى ، حيث تباع للفقراء بالمزاد العلنى .

وتجمهرت حول العربات جموع من الناس قذرى الوجوه والثياب ، والباعة يدفعون بالخضر العفنة الفاسدة — بازدراء — الى يد أعلى المزايدين سعراً . ورأت چين رجلا بائساً ممزق الثياب وشديد القذارة يلتقط جذر كرومبة فجاً ومتعفناً ثم يجلس بجوار الحائط وينقض على بقايا الجذر وينشب فيها أسنانه وأظافره ، وراح يلتهمها كحيوان هزيل كاد يقضى عليه الجوع ويقتله .

وفزعت چين من هذا المشهد الأليم ، وبعد أن ابتعدت عن ذلك الحيوان

الآدمى ظلت له فى نفسها صورة حية ومفجعة ... « لم يكن الانطباع الأخير هو منظر الثياب الرثة البالية ، أو الوجوه الضامرة الشاحبة ، بل منظر تلك الآلاف من الأيدى الهزيلة الخاوية المثيرة للشجن التى أنهكها الجهد ، وهى ممدودة متحفزة لتنشب أظافرها فى طعام لم يعد صالحاً للآدميين » .

وفى السنوات الست التالية قامت جين بالكثير من الرحلات وزارت العديد من الأماكن ، دون أن يتبدل فيها شيء ، أو يتغير سواء حلت فى احدى المدن الكبرى فى الولايات المتحدة ، أو مرت كسائحة فى فرنسا أو ألمانيا ، أو اسبانيا أو ايطاليا ، وفى كل مكان حلت فيه رأت الأسر الغنية التى ترتدى الملابس الأنيقة وتسير مرفوعة الرأس على دروب الراحة والجمال ، كما رأت المدن العامرة بالبؤساء والفقراء المتدثرين بالخرق البالية والذين انحنت ظهورهم تحت وطأة حياتهم الثقيلة القاسية .

وفى ثمانينات القرن التاسع عشر التى سادها القلق كانت المظالم الاجتماعية قد بدأت تحرك نفوس ومشاعر ثلة من الناس وتدفعهم الى العمل من أجل القضاء على تلك المظالم والتخفيف من ذلك الشقاء . وفى عام ١٨٨٤ افتتح قسيس انجليزى يدعى كانون صاموئيل بارنيت مسكناً فى حى ايست اند المخيف بمدينة لندن ، حيث نزل فيه بعض طلبة جامعتى أوكسفورد وكامبريدج ليشاركوا سكان ذلك الحى آلامهم وأحزانهم باعتبارهم جيران ومواطنين . وقد حمل هذا المسكن اسم بيت توينبى هول ، ولكنه سمى أيضاً « بيت الاقامة » لأن الطلبة كانوا يقيمون فيه ويجعلون منه مركزاً للتقارب الاجتماعى .

وأخيراً خرج الأمل الذى ظل ينمو فى صدر جين سنين طويلة الى حيز التنفيذ فقررت افتتاح مسكن فى شيكاغو بجوار فقراء المدينة ليقاسمها فيه الحياة والعمل ، كل من يؤمن من أصدقائها المثقفين بأن الديموقراطية الحقة هى التى يعيشها الناس عملا ... لا قولا ، وأن الأغنياء والفقراء على السواء لا يمكن أن يتعلموا أسرار الحياة الا من ممارسة الحياة ذاتها .

وفى يونيو عام ١٨٨٨ عادت جين الى لندن ، وزارت توينبى هول وتعلمت كل ما استطاعت أن تتعلمه عن ادارة مثل هـذه المراكز ، ثم عادت الى شيكاغو « لتبحث عن بيتها الكبير بين الفقراء » .

وظلت الآنسة آدامز شهوراً طويلة تبحث عن البيت المنشود ، واستعانت بكل من يستطيع أن يدلها على المكان المناسب من متشردين ، وضباط ، ومبشرين ، ومهندسين معماريين ، ومراسلى صحف ، ولكن الحظ لم يحالفها . وفى عصر يوم من أيام الآحاد ، والربيع لا يزال وليداً ، شاهدت جين من نافذة عربة أحد الأصدقاء بيتاً قديماً جميلا ينتصب فى رشاقة وشموخ بين البيوت الأخرى ، على جانبه دكان حانوتى وعلى الجانب الآخر صالون حلاقة ، والبيت مشيد من الحجارة ومكون من طابقين وله مدخل يوحى بالصداقة والترحيب تغطيه سقيفة مرفوعة على أعمدة أحسن نحتها وتجميلها .

وقبل أن تتبين الآنسة آدامز الموقع تماماً كانت العربة قد مرت بالبيت مسرعة ثم استدارت فى منعطف وغاب البيت عن ناظريها . وعادت جين فى اليوم التالى ولكن سيراً على الأقدام هذه المرة وظلت تبحث عن ذلك البيت يوماً بعد آخر حتى استسلمت لليأس فقد اختفى البيت تماماً وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته .

وبعد ثلاثة أسابيع من البحث المضنى رأت أن تقبل نصيحة أصدقائها ممن عاشوا كل حياتهم فى مدينة شيكاغو وعرفوا مداخلها ومخارجها . ووضعوا لها دائرة على خريطة ليثبتوا لها أن أنسب موقع لمسكنها المقترح هو المنطقة المحيطة بميدان بلو ايلاند وشارعى هالستد وهارلسون . فهنا يتركز الأجانب حيث يعيش عشرات الألوف من الناس الذين يكافحون فى تلك المنطقة من أجل البقاء ... جاءوا من جميع أنحاء أوروبا ، ايطاليون من نابلى وصقلية وكالبريا ، يهود من بولندا وروسيا وبوهيميا ، فرنسيون من كندا وايرلنديون ، وألمان ، هولنديون واسكتلنديون ، يونانيون ،

واسكندنافيون . وفى تلك المنطقة أيضاً يعيش الجيل الأمريكى الأول من أبناء هؤلاء الأجانب . فمعظم هذه القوميات لم يكن قد انصهر بعد فى البوتقة الأمريكية الكبرى ، فما زالت كل جماعة قومية تتمسك بحياتها الأولى وتقاتل جيرانها ممن يتكلمون لغات أخرى .

بدأت الآنسة آدامز البحث للمرة الثانية ، ولنتصور مدى فرحتها عندما وقعت عيناها ، عند ناصية شارعى هالستد وبولك ، على ذلك المبنى القديم الذى كان مستشفى فيما مضى ، فاذا به نفس البيت الذى لمحته من عربة ذلك الصديق . وكان كل ما يحيط به يقطع بأنه قد شاهد أياماً أفضل خلال الثلاث والثلاثين سنة التى انقضت عليه منذ شيده السـيد تشارلز هل لأسرته ، وقد رحل آل هل منذ زمن بعيد . ولكن البيت الذى أخنى عليه الدهر ظل قائماً ، فى جزء منه مكاتب ومخزن مصنع ، وفى الطابق الثانى سكان يعيشون ، برغم ما يشاع عن وجود أشباح وعفاريت تسكن الطابق العلوى من البيت ، وكنوع من الاحتياط والأمان احتفظ هؤلاء السكان بجـرة مملوءة بالماء فى أعلى السلم المؤدى الى ذلك الطابق اعتقـاداً منهم بأن الأشباح لا تستطيع اختراق الماء !

كان بيت آل هل الرشيق يقوم كجزيرة فى بحر من المساكن ذات الثلاثة والأربعة طوابق ، وشارع هالستد والحوارى المحيطة به ضيقـة ومتخمة بالناس ، والشوارع المرصوفة بمربعات من خشب الأرز انتزعها الناس من هنا وهناك ليتخذوا منها وقوداً تاركين فى الشوارع حفراً خطرة ، والشوارع قذرة بدرجة لا توصف ، والروائح كريهة تزكم الأنوف ، وأكوام القمامة متعفنة ، ومخلفات تطفح بها صناديق خشبية مثبتة على الأرصفة . حقيقة ... كان للمدينة قوانين للتنظيم والنظافة ... ولكن من سوء الحظ لم يحاول أحد أن يضعها موضع التنفيذ .

وتقاطعت مع الشوارع الرئيسية حوار ضيقة مظلمة اتخمت هى الأخرى بالعمارات السكنية التى شيد أقلها من الحجر وأكثرها من الخشب ، وخلا

معظمها من سلالم الانقاذ من الحريق ومن المياه الداخليــة ، اللهم الا من صنبور واحد يوجد فى الفناء الخلفى لكل عمارة ليسد حاجة جميع السكان . وقد قابلت الآنسة آدمز فى تلك المنطقة سيدة ألمانية عجوزاً قضت السنوات الأربع السابقة فى صعود وتزول تحمل الماء سبعة أيام فى الأسبوع لتغسل معاطف الرجال الذين يعملون فى مسبك للحديد وهى ثقيلة مصنوعة من الصوف الخشن ، ومع كل هذا الجهد لم يكن أجرها يتجاوز خمسة وثلاثين سنتاً فى اليوم .

وكانت فى المدينة شبكة للمجارى ولكن معظم تلك المساكن لم تكن متصلة بها ، فكان الناس يستخدمون كمراحيض غرفاً صغيرة قذرة ومتهدمة مرفقة بالعمارات ، ومن تلك المراحيض المكشوفة كانت تفوح روائح تزكم الأنوف . ولم يكن فى المنطقة التى تحيط ببيت آل هل والتى كانت تبلغ ميلا مربعاً أكثر من ثلاثة حمامات .

وقد كان ملاك هذه العمارات يجنون أموالا طائلة من تأجير هذه المساكن التى لا يلزمهم أحد بتزويدها بالمياه أو المجــارى ، وكانوا يتعللون بأنه لا جدوى من تزويدها بهذه المرافق ما دام المستأجرون الأجانب لا يتقبلون مظاهر الحياة فى المدن الحديثة ، فاذا ما أعطوا حمامات استخدموها فى غير أغراضها ، واستعملوها مخازن للفحوم .

صحيح أن الريفيين البسطاء غالباً ما يحاولون نقل أساليب حياتهم التى ألفوها ويتمسكون بها حتى ولو لم تتفق مع البيئة الجديدة ، وصحيح أيضاً أن الفلاحين اليونانيين ظلوا متمسكين بعادة ذبح الخراف فكانوا يذبحونها فى بدرومات المنازل ، كما كان الناس يصنعون الخبز لجيرانهم فى أماكن قذرة الى درجة لا يمكن وصفها . ولكن حدث أن حفر فنان ايطالى على مدخل البيت الذى يسكنه نموذجاً من اللوحة التى رسمها على ستارة مذبح كنيسته فى نابلى ، فهل سعد مالك ذلك البيت بهذه اللوحة الرائعة ؟ كلا بالطبع ، بل أرعد وأزبد واعتبر أن الفنان قد أتلف ممتلكات خاصة فطرده من مسكنه .

واندست المصانع والمكاتب وقامت المخازن والمتاجر بين المساكن ، ففى جنوب بيت آل هل كانت تقع مخازن شيكاغو ذات الروائح الكريهة ، والى شماله أحواض بناء السفن ، وبين هذه وتلك تقوم محلات جزارة وبقالة وصالونات حلاقة ، وصالات رقص ، ومخازن أقمشة وملابس ، وبنوك رهونات وغيرها . وعلى النواصى وفى المنعطفات يقف الباعة المتجولون بعرباتهم يبيعون كل شىء من خضر وفاكهة ، وأدوات منزلية وملابس ، وفى البدرومات المظلمة ، والغرف المسحورة القذرة كالزرائب ، وفى الأكواخ والغرف الخلفية الملحقة بالعمارات السكنية يتكدس المئات ممن يكدحون فى صنع الزجاج والعلب والسيجار والحلوى والملابس .

فى تلك الأيام لم تكن هناك قوانين تحدد ساعات العمل أو أجور العمال فلا تأمين ضد المرض أو البطالة ، والويل كل الويل لمن يصيبه الالتهاب الرئوى لوقوفه تحت المطر وهو يحفر الأرض ، أو لمن يصاب بمرض السل نتيجة استنشاقه الغبار المتطاير عاماً بعد آخر فى مصنع للنسيج . فالكثيرون يتلهفون على شغل مكانه ... والكثيرون يستطيعون ذلك .

وكان العامل العادى يشتغل ما بين اثنتى عشرة ساعة وأربع عشرة مقابل عشرة دولارات فى الأسبوع ، كما كان معظم الزوجات والأولاد يعملون حتى يضيفوا الى دخل الأسرة الهزيل كل ما يستطيعون اضافته من سنتات أو دولارات مهما قلت قيمتها .

أما أصحاب العمل فكانوا يفضلون استخدام الأطفال لأنهم أنشط جسماً وأخف حركة ، ويتقاضون ــ بحكم صغر سنهم ــ أجوراً أقل من الكبار . ففى حرفة الحياكة مثلا كان الطفل يتقاضى أربعة سنتات فى الساعة . وكان الأطفال يعملون أياً كان سنهم حتى الذين لم يتجاوز الخامسة كانوا يجلسون بجوار أمهاتهم ، ساعة مضنية بعد ساعة مضنية ، وكانوا يسحبون خيوط السراجة من الأقمشة . وكانت الفتيات الكبيرات يقمن بقضاء الحاجات ، أو لصق البطاقات على الجرار ، أو فرز الخرق أو صنع الحلوى . وفى مناسبة

عيد الميلاد قدمت الآنسة آدمز الحلوى لمجموعة من البنات فأشاحت الفتيات بوجوههن فقد كن يعملن فى صناعة الحلوى من السابعة صباحاً حتى التاسعة ليلا فكرهن الحلوى الى حد أنهن « لم يعدن يحتملن رؤيتها » .

أما الأولاد فكانوا يقومون بتوصيل اللفائف ، أو جمع الحديد الخردة ، كما كانوا يعملون فى صناعة الزجاج وفى المغاسل ، وفى بيع الصحف فى الشوارع لكى يكسب الواحد منهم فى نهاية الأسبوع ثلاثة دولارات على الأكثر . وفى العمل كان الأطفال يصابون بجروح ويقتلون ، وكان من الممكن تغطية الآلات المكشوفة بدولارات قليلة ، ولكن أصحاب الأعمال ما كانوا لينفقوا دولاراً واحداً من أجل حماية الأطفال ، فقد كان الآباء يتعهدون كتابة ومقدماً بأنهم لن يطالبوا صاحب العمل بأى تعويض اذا ما أصيب الطفل « باهماله » فى أثناء تأدية عمله .

تلك كانت المنطقة التى شاءت الظروف أن تعيش فيها چين وتعمل وتبدأ فيها الكفاح من أجل الطبقات الفقيرة .

٣

فى ١٨ سبتمبر عام ١٨٨٩ انتقلت چين آدمز وصديقتها ايلين ستار ومعهما مديرة المنزل مارى كايزر الى « بيت — هل » . ولم يعد هنـاك ما يشغل تفكيرهم غير تبين العمل الذى ينتظرهم فى ذلك المكان . وفى ليلتهم الأولى بلغ بهم الانفعال حداً كبيراً أنساهم احكام اغلاق الباب الخارجى ، ولكن بفضل الله لم يقتحم عليهم البيت أحد فى تلك الليلة .

وأخذ الناس فى الأيام التالية يتدفقون على البيت فى استحياء وبدافع الفضول فى البداية ثم بجرأة ورغبة فى معرفة حقيقية ما يعـد لهم فى ذلك البيت . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح « بيت هل » يستقبل منذ الصباح

الباكر وحتى ساعة متأخرة من الليل ما يقرب من الألفى انسان ، وتقاطر عليه الرجال والنساء والأطفال الذين جاءوا للقراءة والاطلاع ، أو للاشتراك فى الندوات ، أو للالتحاق بروضـة الأطفال ، أو لمشـاهدة المسرحيات والتمثيليات ، أو لتعلم الطهى والحياكة ، أو لحضور دروس اللغة الانجليزية وعلم المجتمع . وفى ذلك البيت كانوا يتمتعون بالنـوادى الاجتماعية ، ومعارض للفن ، وبفرع لمكتبة شيكاغو العامة . كما كان هناك أيضاً فرع لمكتب البريد ليسجل فيه النـاس خطاباتهم الثمينة لترسـل الى أوروبا مباشرة ، حتى لا يقعـوا ضحية المحتالين الذين يتظاهرون باسـتعدادهم لتوصيل النقود الى الأقرباء عند عودتهم الى بلادهم ، ويستغلون جهـل المهاجرين ليخدعوهم خديعة قاسية .

وتوافد الكثيرون على البيت أملا فى الاهتداء لحلول لمشاكلهم ، مثل سيدة خرج زوجها بعد مشاجرة ولم يعد الى بيته فكيف تعول صغارها ! ، وامرأة مات زوجها والزوجة الملتاعة لا تعرف من أين تستطيع الحصول على مبلغ التأمين على حياتها ! ، وسيدة عجوز تصاب بالجنون وابنتها لا تستطيع مواصلة رعايتها فى البيت فأين يمكن أن تودع هـذه السيدة العجوز ! ، وكيف تستطيع الابنة اقناعها بأنها ستجد الأمان والرعاية فى المكان الذى سترسل اليه ! ، وطفل يولد مشوهاً والأم ترفض الاحتفاظ به ! ، وعروس لم تتجاوز الخامسة عشرة من العمر تخاف زوجها الذى يضربها ضرباً مبرحاً ليلة بعد أخرى لأنها أضاعت خاتم زواجها ! ، وصور كثيرة ، لنماذج بشرية مريرة ، تنشد الأمان وتطلب الضمان ... !

وجاء أصدقاء آخرون للاقامة والعمل فى بيت « هل » ، كما انضم الى الآنستين آدامز وستار متطوعون لبعض الوقت جاءوا من جميـع أنحاء المدينة ، ومضى العام الأول فى دوامة من النشاط والجهد المضنى ، وعلى الرغم من أن الآنسة آدامز كانت قد أعدت ميزانية دقيقة ، الا أنها أخذت تحس بالقلق الشديد لكثرة الفواتير التى لم تسدد . وكان سكان بيت

هل يقومون باعداد طعامهم وغسل نوافذ البيت بأنفسهم ، ويقترون على أنفسهم ليدخروا شيئاً ينفقونه على المشروعات العـزيزة عليهم ، ولكن ما أكثر الأشياء الكبيرة والصغيرة التى كان يتعين عليهم القيام بها !

وبدأ الناس يتعلقون بالآنسة آدامز الودود الطيبة التى ما كان ليفوتها أن توقف احدى جاراتها فى الطريق لتبدى اعجابهـا بطفلها الجديد ، أو لتطلب منها اقراض شالها الجميل الذى غزلته بنفسها لبيت « هل » ، فقد كان بيت « هل » قد أصبح معرضاً للعمل يصور ويشرح مختلف طـرق الغزل التى كانت متبعة فى جميع بلدان أوروبا فى ذلك الحين .

وفى بيت « هل » تقابل الجيران فى المناسبات الاجتماعية ، واستمتعوا بفترات للراحة كانوا فى أشد الحاجة اليها بعيداً عن غرفهم الكئيبة الموحشة ، ففى ذلك المكان الذى يبعث فى النفس البهجة والسرور عرضت عشرات من اللوحات الجميلة والأعمال الفنية البديعة .

وفى مناسبة من تلك المناسبات شاهدت سيدة ايطالية من ربات البيوت زهوراً حمراء فى فازة ، فأخذت ترحب بالزهور كما لو كانت ترحب بأصدقاء أعزاء افتقدتهم سنين طويلة ، وقالت : « أنا لا أصدق عينى ، كيف وصلت هذه الزهور البديعة اليانعة من بلادى ! » .

وردت عليها الآنسة آدامز تقول : « اننا لم نحضرها من ايطاليا يا عزيزتى .. بل جئنا بها من محل للزهور لا يبعد عن مسكنك بأكثر من عشرة بيوت » .

ولكن السيدة الأجنبية المولد ظلت تردد بلغة انجليزية ركيكة تشوبها اللكنة الايطالية : « هذا مستحيل ، فأنا أعيش فى شيكاغو منذ ست سنوات ولم أشاهد أثراً لهذه الزهور ، ان الزهور لا تنبت هنا . أما فى ايطاليا فهناك الكثير منها وبخاصة فى فصل الصيف » .

ومن واقع حاجات أهل الحى الملحة كانت المشروعات الكبرى تنبثق فى بيت « هل » فمثلا كان عدد كبير من سيدات الحى يعملن فى صناعة الملابس فى مصانع كان يطلق عليها اسم « ورش الشقاء والعرق » وذلك

لأن أصحابها كانوا يطالبون النساء بالعمل ساعات طويلة مقابل أجور زهيدة ، وفى ظروف عمل سيئة قاسية ، كانت المرأة تعمل فى حياكة الملابس اثنتى عشرة ساعة متواصلة فى ورشة من « ورش الشقاء والعرق » تخرج بعدها منهوكة القوى لا تقوى على الوقوف على قدميها لتبتاع الحاجيات أو تعد الطعام لأسرتها . وعندما يحين موعد تناول الطعام كانت النسوة العاملات فى تلك الورش تخسطر لفتح بضع علب من الأطعمة المحفوظة التى كانت لقلتها لا تغنى أو تسمن من جوع أو يمنحن أطفالهن بضعة سنتات ليبتاعوا لأنفسهم طعاماً ، فيتوجه الأطفال الى أقرب محل تبيع الحلوى لينفقوا المليمات فيما لا يقيم الأود أو يفى بغذاء الطفل .

وعندما تخرج الأمهات الى العمل لا يبقى فى البيت أحد لرعاية الأطفال ، سوى جارة واحدة تقوم فى أوقات نادرة وبمشاعر فاترة لتطل على « الأطفال بين الحين والحين » ، وفى معظم الأوقات كانت الأمهات يغلقن الباب على الأطفال بعد أن يربطن الصغار فى قوائم المائدة أو السرير ، مما كان له الأثر الأليم على حالة الطفل الصحية ، فلا ينمو جسمه الذى ظل مربوطاً يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر نمواً عادياً ، فاذا ما نجا من الاصابة بالكساح ، لم يكن ببعيد أن يلقى حتفه أو يصاب بجراح وعاهات نتيجة اللعب بأعواد الثقاب أو التعثر والسقوط من النوافذ .. !

وفى فصل الصيف يزيد الطين بلة ، وتواجه الأمهات البائسات مشكلات من نوع آخر ، فالجو حار وما من أم تجرؤ على ربط أطفالها وحبسهم فى غرفة لا تطاق وكأنها الجحيم ، وفى نفس الوقت لم تكن لتجرؤ على ترك الباب مفتوحاً خشية اللصوص ، وللخلاص من هذا المأزق كانت الأمهات يعطين الأطفال سنتات ليشتروا بها ما يتبلغون به ، ويلقون بهم خارج البيت ويوصدون الأبواب فى وجوههم ، فيمضى الأطفال يومهم وهم يتجولون فى الحى ، ويلعبون فى الشوارع ، ويتصيدون كسر الخبز من صناديق القمامة ، ويبحثون عن الدهاليز الرطبة ليصيبوا فى ظلالها شيئاً من الراحة ...

وكان من الطبيعى والحال هذه أن يكون المشروع الأول الذى فكر فيه سكان بيت « هل » هو انشاء روضة أطفال ، ثم دار للحضانة تترك فيها الأمهات أطفالهن وهن مطمئنات ، ثم أنشأ بيت « هل » مطبخاً عاماً يقدم للناس وجبات من الحساء المغذى والعصيدة بأسعار زهيدة .

وكما هى العادة لم يقبل الناس فى أول الأمر على شراء الطعام من المطاعم العامة لأنهم كانوا يخشون أن لا يأنسوا ولا يستطيعوا مذاق الأطعمة الأمريكية الغريبة . وقد اعترفت سيدة ايرلندية ــ وهى لا تخفى تذمرها ــ بقيمة الحساء ولكنها مع ذلك كانت تفضل أن تتناول « ما ألفته » ، وأبدى أحد الايطاليين الدهشة حينما لاحظ أن الأمريكيين يأكلون أشياء كثيرة ومتنوعة ، وكان ذلك الرجل يعيش بجوار صالة طعام لم يشاهد فيها أحداً من الزبائن يطلب طعاماً غير البطاطس والبيرة وهما الصنفان الوحيدان اللذان كانت الصالة تقدمهما للزبائن .

وقد بدأ الأطفال ذوو الجنسيات المختلفة حياتهم فى روضة الأطفال وهم لا يخفون عداءهم لبعضهم البعض ، وقال طفل ايطالى لـ « جينى دو » المدرسة بالروضة : « نحن نأكل الاسباجيتى بهذه الطريقة » ، ثم أراها كيف يلفون المكرونة حول الشوكة بعناية ورشاقة ، وأشار بازدراء الى الطفلة أنجيليا التى راحت تدفع رأسها الى الوراء وتسقط الاسباجيتى فى حلقها ، وقال تونى : « ان الطريقة التى تتناول بها أنجيليا الاسباجيتى طريقة خاطئة ، ولذلك لن أقبل الجلوس الى جوارها بعد الآن » .

كان نقص الحمامات فى الحى سبباً من أسباب الضيق والهم لدى الآنسة آدامز ، فشيدت ثلاثة حمامات فى بدروم منزل « هل » ، وأقبل الناس على استخدامها بلا انقطاع بينما راحت الآنسة آدامز تلح وتلحف فى الرجاء على ادارة الصحة فى مدينة شيكاغو لتنشىء المزيد من هذه التسهيلات . وأخيراً وبعد عدة سنوات وافقت السلطات ــ وهى مكرهة ومجبرة ــ على بناء حمام عام ضخم فوق قطعة أرض تبرع بها أحد أصدقاء بيت « هل » .

وكان المسئولون يعارضون فى اقامة هذا الحمام لأنهم كانوا يعتقدون أن أحداً لن يستخدمه ومن ثم فان اقامته لن تعنى شيئاً سوى تبديد ١٠,٠٠٠ دولار من الأموال العامة . وبالرغم من ذلك حقق الحمام بمجرد افتتاحه نجاحاً منقطع النظير مما دفع المدينة الى افتتاح المزيد منها وتعميمها .

ولم تكن المساكن القذرة أقل مدعاة لحزن الآنسة آدامز من نقص الحمامات فراح العاملون فى بيت « هل » يعقدون الندوات للمطالبة « باصلاح المسكن » . فأحس شاب ثرى كان يملك مجموعة من العمارات السكنية بخجل شديد دفعه الى اعلان تنازله عن تلك العمارات الى بيت « هل » ، ولكن الآنسة آدامز تبينت أنها أوشكت على الانهيار مما يجعل من المستحيل ترميمها ، فهدمتها ، وجعلت من أرضها ملعباً كانت تحتاج اليه المنطقة أشد الاحتياج ، ومنذ ذلك الحين ... ظهرت الملاعب والمتنزهات الصغيرة فى أماكن أخرى من المدينة .

ثم وجهت الآنسة آدامز اهتماماً بصناديق القمامة المتعفنة الممتدة على جانبى شوارع الحى التاسع عشر من أحياء مدينة شيكاغو ، وهو حى يعيش فيه ما يقرب من خمسين ألف نسمة ، وكانت تلك الصناديق التى تفيض بما تراكم فيها من قاذورات قذى فى العيون ومرتعاً للفيران والذباب ، ومصدراً للروائح الكريهة ، وأسوأ من ذلك أنها كانت تنشر المرض والموت على سكان العمارات القذرة ، مما أدى الى ظهور « أمراض القذارة » .

وفى بيت « هل » أقيمت محرقة صغيرة لحرق القمامة ، وأخذت الآنسة آدامز والدكتورة أليس ميلتون احدى المقيمات بالبيت تعقدان الحلقات للمهاجرات لتحاضراهن فى أهمية النظافة وتقولا لهن : « فى قرى بلادكن الأصلية لم يكن من الخطأ كنس المنازل واخراج الزبالة الى الخلاء حيث تتآكل القمامة وينعدم خطرها بفعل الهواء الطلق وأشعة الشمس ، أما هنا .. وفى المدينة فان عدم جمع القمامة وحرقها يعرض أطفالكن للمرض والموت ،

ولا يكفى أن تعملن على نظافة بيوتكن بل يجب أيضاً أن تطالبن السلطات بالعمل على نظافة المدينة » .

وكم من مرات عديدة لجأت فيها الآنسة آدامز الى بلدية المدينة مطالبة بازالة القمامة من المدينة وبذل المزيد من العناية والاهتمام ، ولكن شيئاً لم يتغير ، ولم يتحقق ، سوى أن عين فى كل حى مفتش للنظافة ، وسمى هذا المنصب « ببيضة الذهب » السياسية لأن شاغله كان يتقاضى مرتباً قدره ألف دولار فى السنة دون أن يتطلب منه جهداً يذكر . فما على المفتش الا أن يقبل الوظيفة ويضع المرتب فى جيبه ثم يهتم بشئونه الخاصة ، بينما يهتم مقاول جمع القمامة هو الآخر بشئونه الخاصة فاذا كان المقاول ملتزماً باستخدام ثلاث عشرة عربة فى اليوم الواحد لجمع القمامة ولم يستخدم غير خمس عربات فقط يوماً بعد يوم لانخفضت مصروفاته ، وزادت أرباحه أضعافاً مضاعفة .

ولم تحرز الآنسة آدامز أى تقدم بعد أكثر من أربع سنوات من الالتجاء الى بلدية المدينة ، فاستعانت بأنشط عضوات النادى النسائى التابع لبيت « هل » ، وفى كل ليلة من ليالى شهرى يوليو وأغسطس الشديدة الحرارة . كانت اثنتى عشرة سيدة ذات صلابة وجلد واصرار يقمن بجولات تفتيشية ثلاث مرات فى الأسبوع فى شوارع الحى القذرة وحواريه المظلمة للتأكد من افراغ صناديق الزبالة ، فاذا وجدن صناديق غير مفرغة قمن بتسجيل المخالفات وابلاغها لادارة الصحة التابعة للبلدية ، وقد أبلغن عن أكثر من ١٠٣٧ مخالفة !

وصدر قرار عاجل بنقل ثلاثة مفتشين للقمامة من الحى التاسع عشر واحلال ثلاثة غيرهم ، ولكن نسبة الوفيات لم تنخفض ولم تتحسن نظافة المدينة . حينما فقدت جين آدامز الأمل فى أن تقوم البلدية بواجبها على خير وجه رأت أن تتولى هى مهمة جمع القمامة ، واستعانت بصديقين من رجال الأعمال لتقدم طلباً بالاذن لها بتولى هذه المهمة فى الحى التاسع عشر ،

ورفض طلبها ، واكتفى العمدة بتعيينها مفتشة للنظافة فى ذلك الحى ، وكانت تلك الوظيفة هى أول وآخر منصب نها فى حياتها !

وفى صباح كل يوم ، كانت الآنسة آدامز تخرج من البيت فى تمام السادسة سواء كان الجو صحواً أو ممطراً لتشرف على جامعى القمامة أثناء القيام بعملهم ، وتتأكد بنفسها من افراغ الصناديق عن آخرها وتقل القمامة الى المكان المعد لذلك ، لا القائها فى أى مكان آخر من الشارع . وأصرت چين على أن يزيد المقاول عدد العربات من تسع الى ثلاث عشرة ثم من ثلاث عشرة الى سبع عشرة ، كما أصرت على أن يقوم بنقل جثث الخيول النافقة من شوارع الحى وعدم تركها حتى تنقلها عربات البوليس ، فراح المقاول يئن ويتوجع ويتشكى زاعماً أنه سوف يلقى حتفه بائساً مسكيناً .

ثم جمعت الآنسة آدامز بعض أطفال الحى لمساعدتها فى جرف القمامة المتراكمة فى احدى الحوارى ، وأزالوا طبقة سمكها ثمانى بوصات ومع ذلك لم تلمس معاولهم أرض الشارع ، فأصرت چين على أن يقوم مدير التنظيم فى شيكاغو بالعمل ، فرضخ ، وبعد أن أزيلت طبقات من القمامة بلغ سمكها ثمانى عشرة بوصة ظهرت أرض الشارع المغطاة بالمربعات المصنوعة من خشب الأرز .

وفى تلك الفترة تولت أميندا جونسون زميلة چين المدربة وظيفة مفتش القمامة ، وفى عام ١٨٩٥ خرجت الوظيفة من مجال العمل السياسى بعد أن جعلتها حكومة ولاية الينوى من وظائف الخدمة المدنية ، وكان لهذا القرار أثره فى اشاعة الفرحة فى نفوس الكثير من المواطنين .

تعلمت چين فى بيت « هل » دروساً كثيرة على قدر كبير من الأهمية ، وكان أحد هذه الدروس هو عدم جدوى قيام عدد ضئيل من الأفراد بالعمل لأن ذلك لا يكفى لتحويل مجرى « التعاسة الغامرة » والبؤس المقيم فى كل مكان . وكما تعاون أهل الحى من أجل جعل حيهم أكثر نظافة وجدارة بأن يعيش فيه الناس ، كذلك شارك نزلاء بيت « هل » الجماعات الأخرى فى النضال من أجل تحقيق الاصلاحات المطلوبة .

وأخذت الآنسة آدامز تهتم برفاهية الأطفال ، وبدأت تناضل من أجل صدور قانون يحدد ساعات عملهم ويحسن ظروف العمل ، وكعادتها أخذت تجمع الحقائق ، فقامت هي وزميلتها « فلورنس كيلى » بزيارة المئات من « ورش الشقاء والعرق » ، جمعت خلالها آلاف الحقائق التى تحولت فى بيت « هل » الى احصائيات صناعية ، أرسلت الى منطقة العمل بحكومة الينوى . بينما راحت الآنسة آدامز تتنقل فى أرجاء المدينة بل والولاية كلها مخاطبة أعضاء النوادى النسائية والجماعات الدينية ، والنقابات العمالية ، تطالبهم بضرورة المشاركة فى هذه المعركة .

وأثارت جين بنشاطها زوبعة من المعارضة ، فما كانت العقليات المتخلفة والتقاليد البالية لتهزم بسهولة ، وفى تلك الأيام كان الذين ينفرون من مشاركة النساء فى الحياة العامة كثيرون ، والمتشبثون منهم بالقديم يقولون « ليس من شأن جين آدمز أن تطالب باصدار هذا القانون ، فذلك العمل لا يقل اهداراً لكرامتها وأنوثتها من النزول الى الشوارع لازالة القمامة ، ان البيت هو المكان الطبيعى للمرأة » .

وواجهت جين معارضة أخرى أشد عنفاً ومرارة جاءتها هذه المرة من آباء بعض الأطفال ، وقال واحد منهم : « اننى متعطل ولكن ابنى « فلو » يعمل فى أحد مصانع الزجاج بينما يعمل ابنى الثانى « جيلى » فى بيع الصحف بالشوارع ، فاذا انقطعت النقود التى يعطيانها لى فمن أين أعيش وكيف ! ؟ بل وأكثر من ذلك وأقسى أن الأطفال أنفسهم لا يرغبون فى الذهاب الى المدارس ويفضلون العمل » .

وهبت العاصفة الكبرى من جانب أصحاب المصانع ، الذين ساد بينهم الاعتقاد بأن القوانين واللوائح الحكومية لن تؤدى الا الى خرابهم ، وراحوا يعلنون أن جهادهم الطويل والشاق هو الذى جعل من أمريكا بلداً منتعشاً وأن العمل ليس أكثر من أحد الموارد الطبيعية كالحديد والبترول والأخشاب التى كانوا ويجب أن يظلوا يستخدمونها بحرية تامة ، ونادوا

بأن الرقابة الحكومية ليست الا مؤامرة يدبرها ثوريون يريدون طردهم من مجال الأعمال والتجارة ، ولذلك كانت نقابات العمــال فى رأيهم منظمات ثورية ، كما كانت چين آدمز ثورية بدورها لأنها كانت تشجع وتؤيد تلك النقابات .

وفى يوم من الأيام قام رجلان من أثرياء المدينة بدعوة چين الى الغداء واصطحباها الى أفخم ناد فى المدينة ثم قالا لها : « نحن نتحدث معك باسم مجموعة كبيرة من أصحاب المصانع ، ونطلب منك أن تتخلى عن ذلك العبث الراديكالى الذى تسمونه بقوانين العمل ، وفى مقــابل ذلك سنقدم لك منحة قدرها ٥٠ ألف دولار تستطيعين انفاقها فى الأغراض الأخرى ، ولاشك أن هذا المبلغ كفيل بأن يجعل من بيت « هل » أكبر وأضخم مؤسسة فى الغرب كله ! » .

وكان مبــلغ الخمسين ألف دولار يعتبر فى ذلك الوقت ثروة طائلة ، وكانت النقود فى بيت « هل » تتبخر كما تتبخر قطرات الماء فى الصحراء . وتذكرت چين آدامز الافتتاحية التى تعرضت فيها جريدة التاغز لحياة والدها الطيب الذكر فى مناسبة موته فامتلأت نفسها بالعار واحمرت وجنتاها من شدة الخجل ، وراحت تسأل نفسها عن نقطة الضعف التى لمسها فيها هذان الرجلان حتى تجرءا على عرض الرشوة عليها وهى ابنة جون آدامز !

وكبحت چين جماح غضبها وأخذت توضح لهما بهدوء أنها لا تطمع فى أن يصبح بيت « هل » أكبر مؤسسة فى الغرب وقالت : « ان غرضنا الأساسى هو حماية جيراننا من قسوة ظروف العمل . ولو كان تحطيم بيت « هل » ســيحقق لنا هذا الغرض لأزلنــاه من الوجود ونحــن فى غاية السعادة » .

ثم أضافت : « بل ونحن نرقص ونغنى فوق أطلاله » .

وفى الأول من يوليــو عام ١٩٠٣ صدر قانون تشــغيل الأحداث فى الينوى ، وبفضل هذا الأسلوب من العمل فى صمت ودأب من أجل تحقيق

التغيرات المطلوبة ، نجحت چين آدامز فى استصدار العـديد من القوانين التى ترمى الى اقامة نظام اجتماعى أفضل مثل تحديد ساعات العمل بثمان ساعات فى اليوم ، وحماية العمال الصناعيين ــ ومحاكم الأحداث ــ وحق الانتخابات للمرأة ... الخ . وأصبحت أوجه نشاط بيت « هل » نموذجاً يحتذى به المئات من المراكز الاجتماعية المماثلة فى جميع أنحاء العالم .

وفى السنوات الأخيرة من حياتها كرست چين آدامز معظم وقتها للنضال من أجل نزع السلاح والسلام العالمى . ولم تتخل فى أى وقت من الأوقات عن ايمانها بأن الأمم تستطيع ، كما استطاع أبنـاء القوميات المختلفة الذين يعيشون بجوار بيت « هل » أن تتعلم كيف تعيش فى سلام ومحبة ، وكيف تسوى خلافاتها بالنقاش الشريف الهادىء .

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى حين كان الحديث عن السلام عملا من أعمال الخيانة الوطنية ، لم تتوقف چين عن التنقل فى جميع أنحاء العالم لتكتب وتتحدث عن السـلام . وفى عام ١٩١٥ أصبحت چين أول رئيسـة لمنظمة دولية جديدة عرفت باسم « جمعية النساء الدولية للنضال من أجل السلام والحرية » .

وفى ديسمبر عام ١٩٣١ منحت الآنسة آدامز جائزة نوبل للسـلام . وتلقت خبر اقتسامها مبـلغ الجائزة وقدره ٣٠,٠٠٠ دولار مع الدكتور نيكولاس موراى ، وهى فى احدى المستشفيات استعداداً لعملية جراحية خطيرة ، وفى الحال أعلنت چين تنازلها عن نصيبها فى الجائزة الى « جمعية النساء الدولية » حتى تتمكن من مواصلة النضال من أجل السلام والحرية .

وفى السنوات التالية ساءت صحة چين آدامز ولـكنها لم تتوقف لحظة واحدة عن النضال بعناد واصرار من أجل تحقيق معتقداتها ، وفى مأدبة أقيمت تكريماً لها سمعت السـيدة العجوز المتوجعة أحد أعضـاء وزارة الرئيس فرانكلين روزفلت يحييها بالعبارات البليغة التالية :

« ان من يريد أ ن ينمى فى أطفاله خير ما فيهم من صفات لا بد أن يقتدى بالتقاليد التى نشأت عليها جين آدامز . فالأطفال الذين سيربون على هذا النحو سيصبحون أفضل المواطنين فى جيلهم ، وأبطال ذلك النضال الذى لا ينتهى من أجل اقامة حياة اجتماعية أسمى وأفضل ، وذلك كله بسبب ما يتحلون به من اصرار ومثابرة ، وايمان بمحبة الانسان لأخيه الانسان ، الى جانب البساطة وضبط النفس » .

وعندما ماتت جين آدامز فى ٢١ مايو عام ١٩٣٥ ، كانت تلك السيدة العظيمة التى اعتنقت مبدأ « أحب جارك كنفسك » قد تركت وراءها آلاف الأصدقاء المنتشرين فى جميع أنحاء العالم ، وفى بيت « هل » توافد جمهور غفير من كبار الشخصيات العالمية ، ومن سكان الحى التاسع عشر والأحياء المجاورة ، الأغنياء والبسطاء ، الكبار والصغار ، الرجال والنساء ، ليشتركوا فى القداس الجنائزى البسيط الذى أقيم على روحها ، وبعد انتهاء القداس حمل جثمان جين آدامز الى تلك المقبرة القديمة القائمة فى قرية سيدار فيل حيث رقد جثمانها بجوار قبر أبيها الحبيب .

ماری ماکلوید بتیون

Mary McLeod Bethune

ارفع رأسك ولا تخف

١

سارت مارى جان ماكلويد بنت السادسة وأمها باتسى فى الطريق المترب تحملان فيما بينهما سلة مليئة بالملابس الحديثة الكواء ، وانعكست شمس سبتمبر فوق ضفائر الطفلة الزنجية ووجهها العريض الأسود المشوب بحمرة أرجوانية ، بينما راح الفضاء القريب من مايزفيل بجنوب كارولينا يردد أصداء الأغنية الحزينة التى كانت الطفلة مارى كثيراً ما تترنم بها وهى تسير .

وعندما لاح البيت الكبير الأبيض الذى يملكه السيد بن ويلسون توقفت مارى عن الغناء لأن أمها كانت فى يوم من الأيام واحدة من عبيد السيد ويلسون ، كما كانت مارى قد تعلمت بالطبيعة الاحتراس من البيض ، فما على المرء الا أن يأخذ حذره منهم ، وخير ما يفعل هو أن يبتعد عن طريقهم كلما استطاع الى ذلك سبيلا .

وتوقفت مارى عند البوابة الخلفية بينما حملت أمها سلة الغسيل الى داخل البيت ، وفى طرف من فناء البيت رأت بيتاً صغيراً يلعب فيه الأطفال وهو صورة مصغرة للبيت الكبير وتتناثر حوله مجموعة من اللعب .

ووقعت عين مارى على كرة مخططة ، وحصان هزاز ، ومجموعة من العرائس تجلس حول مائدة الشاى الصغيرة . ولم تكن تلك العرائس غير حفيدات السيد ويلسون جئن لقضاء بعض الوقت فى قراءة كتاب ألقين به بجوار جذع شجرة من أشجار البلوط .

كانت الكتب تستولى على لب ماری ، ولم يكن فى كوخ أسرتها غير كتاب واحد هو الكتاب المقدس ، تضعه أمها باجلال وقداسة فوق رف أعد له خصيصاً . ومع ذلك لم تكن جدتها أو أبوها أو أمها أو أى واحد من اخوتها وأخواتها الستة عشر ، أو مارى نفسها يفهم شيئاً من أسرار تلك العلامات السوداء التى رصعت بها صفحات الكتاب فى سطور منتظمة .

وجلست مارى القرفصاء تحت شجرة البلوط والتقطت الكتاب وفتحته على صفحة لصورة تفاحة .

وفى تلك اللحظة أطلت احدى حفيدات ويلسون برأسها من بيت اللعب ، فأتت مارى بعمل من أعمال الطيش والتهور ، دفعتها اليه رغبة لا تقاوم فى أن تشير الى حرف (ت) المطبوع تحت صورة التفاحة وتسأل : « هل تتكرمين على بتفسير معنى هذا الحرف ؟ » .

كان ذلك فى عام ١٨٨١ وكانت الحرب الأهلية قد كللت بالنصر وتحرر العبيد قانوناً منذ ١٨ ديسمبر عام ١٨٦٥ عندما أدخل التعديل الثالث عشر على دستور الاتحاد ، ومع ذلك كان معظم البيض فى الولايات الجنوبية يتملكهم الخوف مما قد يترتب على منح الزنوج الحرية الحقيقية ، فراحوا يخوضون حرباً من نوع آخر هدفها ابقاء الزنوج فى مستواهم الوضيع ، وتحت سيطرتهم . وعندما يظل شعب من الشعوب غير متعلم ، وغير قادر على معرفة حقوقه أو تولى المناصب المرموقة أو أن يعبر عن نفسه من خلال حكومته ، فان هذا الشعب سيظل محكوماً ومستعبداً حتى وان كان حراً كما نص القانون على ذلك .

وكانت الآنسة ويلسون الصغيرة مثلها مثل جميع الأطفال البيض قد تعلمت « أن الله قد خلق جميع الناس متساوين ما عدا الزنوج » فكان من الطبيعى أن تندفع نحو الطفلة الزنجية وتنتزع الكتاب من يدها وتقول لها بازدراء واحتقار : « أنت لا تستطيعين القراءة أيتها الزنجية السوداء ! » .

وفيما هى تدلف بجوار أمها قالت مارى من أعماق قلبها : « أريد أن أتعلم القراءة ، بل أريد أن يتعلمها جميع أهلى وقومى » .

لم يكن هناك ما يوحى بأن مارى ستكون واحدة منهم . فلم يكن فى مدينة الزنوج الذين استطاعوا بطريقة أو أخرى أن يصيبوا بعض العلم ، ولكن مايزفيل بجنوب كارولينا زنجى واحد راشد يعرف القراءة .

واكتفت باتسى ماكلويد بهز رأسها ، ثم تنهدت وظلت ملتزمة الصمت وبطبيعة الحال لم تكن البلاد تخــلو فى أى وقت من الأوقات من قلة من

وذات يوم قالت باتسى لابنتها مارى : « ليس فى المنطقة كلها مدرس زنجى واحد أو مدرسة واحدة ... وأنت تعرفين ذلك » .

كانت مارى هى الابنة الخامسة عشرة لباتسى وسام من أبنائهما السبعة عشر . وكانت تبدو منذ البداية شديدة الاختلاف عن أخواتها الى حد دفع باتسى الى أن تقول لسام ــ ومارى ما تزال تحبو ــ « ان لهذه البنت روحا عالية ، ولسوف يكون لها شأن فى يوم من الأيام والا تحطم قلبها » .

فكيف كانت تختلف عن اخوتها ؟

قبل أن تولد مارى جان ماكلويد كان ابراهام لنكولن قد أطلق عبارته الشهيرة التى تصف طبيعة مارى تمام الوصف : « من الصعب أن تجعل الانسان يشعر بالتعاسة والحقارة اذا كان يؤمن بقيمة نفســه كما يؤمن بانتمائه الى الخالق العظيم الذى صنع جميع البشر » .

ولكن فى عصر ذلك اليوم الجميل من أيام السبت ، حينما راحت باتسى ماكلويد تهز رأسها لابنتها بحزن وأسى ، لم تكن مارى تملك ما يوحى بأن حياتها قد تصبح فى يوم من الأيام المفتاح الذى يفتح جميع الأبواب المغلقة أمام زنوج أمريكا . واكتفت بأن تقول لأمها : « فى يوم من الأيام سيكون لدينا المدرس ، والمدرسة ، وسيبعث بهم الله من أجلنا » .

كان أهل مارى من سلالة أولئك الافريقيين الذين اختطفهم تجار العبيد البيض ، وانتزعوهم من أوطانهم ، ليلقوا بهم فى حياة العبودية فى العالم الجديد ، وكان أبوها سام (لم يكن الزنوج يحملون أسماء الأب أو الجد) مجرد عامل زراعة يعمل فى مزارع ماكلويد التى تقع فى جنوب كارولينا

أما باتسى أمها فكانت تعمل فى المزرعة المجاورة التى يمتلكها السيد ويلسون خارج مدينة مايزفيل الصغيرة .

وفى يوم من الأيام تقابل باتسى وسام بينما كان سام يقوم بتسليم رسالة من السيد ماكلويد الى السيد ويلسون . وعرف الحب سبيله الى قلب الشابين وأرادا الزواج ، وفيما قبل الحرب الأهلية كان من المفروض أن لا يتزوج العبيد زواجاً قانونياً ، ومع ذلك استطاع بعض العبيد أن يتزوجوا ، وكانت الأمور تزداد صعوبة وتعقيداً اذا كان كل من الرجل والمرأة ينتمى الى سيد غير السيد الذى ينتمى اليه الطرف الآخر .

ومع ذلك استجمع سام أطراف شجاعته وباح بآماله للسيد ماكلويد فلم يسخر منه كما كان متوقعاً وقال : « اليك قولى الأخير اذا وافق السيد ويلسون على بيع باتسى فسأجعلك تكسب مالا لتشتريها به » .

ووافق السيد ويلسون وحدد ثمن باتسى ، فترك سام حقول القطن وراح يعمل فى مصنع للأخشاب . كان يقطع المسافة الى المصنع والتى تزيد على الثلاثة أميال سيراً على الأقدام ست مرات فى الأسبوع ويقضى فى العمل أربع عشرة ساعة فى اليوم ، ثم يقطع الأميال الثلاثة مرة أخرى فى طريق العودة الى البيت ، وفى عامين كسب من المال ما يكفى لشراء زوجة المستقبل ! .

ولكن هل معنى ذلك أن أصبحت باتسى حرة ، أم أصبحت ملكاً لسام ؟ فى الواقع لم يكن الأمر بالنسبة لها واحداً من الاثنين ، فلم تعد الا واحدة من عبيد السيد ماكلويد بعد أن كانت فى بيت السيد ويلسون .

وهكذا استطاعا الزواج ، ومنحت السيدة ويلسون لباتسى ثوباً قديماً من ثياب الحفلات ، وأقيمت لباتسى وسام حفلة زواج حقيقية فى صالة بيت السيد ويلسون ، وبعد الحفل عاد الزوجان سيراً على الأقدام الى ثكنات العبيد بمزارع ماكلويد ، ثم عادا فى اليوم التالى لمواصلة العمل فى حقول القطن .

وسارت الأمور على وتيرة واحدة عدة سنوات ، تلد باتسى فتمنح بضعة أيام للراحة تعود بعدها الى الحقول ، وقد شدت الطفل الوليد الى ظهرها أو أرقدته فى ظل شجرة ، وما ان يتعلم الطفل المشى على قدميه حتى يوجه هو الآخر الى العمل ليجرف التراب ، أو ينقى الحشائش ، أو يجمع القطن ، ومع ذلك لم تصدر أية شكوى من باتسى أو سام ، واحتملا الحياة القاسية فى صبر ورضى وقناعة ... لأن السيد ماكلويد كان رجلا طيب القلب لا يضرب عبيده أو يبيع أطفالهم .

وفى عام ١٨٦١ نشبت الحرب الأهليــة فترك المزارعون البيض بيوتهم ومزارعهم ، وانضــموا الى صفوف الجيش الكونفدرالى تمسكاً بحقهم فى الانسحاب من الاتحاد بسبب مشكلة تحرير العبيد ، أما العبيد أنفسهم فقد ظلوا طوال السنة أو السنتين التاليتين يقومون بأعمالهم كالعادة بينما يحاولون اصطياد بعض الأنباء بالانصات خلسة الى مناقشات البيض أو عن طريق الاشاعات التى كانت تنتشر هنا وهنــاك ، أو من أحد الغرباء العابرين بالبلدة .

وفى موسم العنب ترامت اليهم أنباء بيان تحرير الزنوج الذى أعلنه الرئيس لنكولن فى أول يناير عام ١٨٦٣ ، وأصبح العبيد أحراراً . وفى تلك الليــلة حزمت أم باتسى العجــوز التى كانت لا تزال تعمــل فى مزارع ويلسون ، متاعها الضئيل ورحلت لتنضم الى أسرة بنتها وتقاسمهم العيش فى كوخهم القذر القائم فى أملاك ماكلويد .

وهجر كثير من عبيد ماكلويد المزرعة ، ولكن باتسى وسام لم يرحلا ، فالى أين يذهبا ؟ ومن أين يطعمان نفسيهما وأطفالهما العشرة والجــدة صوفيا ؟ ، وأين يجدون المأوى ؟ ان الحرية تتطلب تخطيطاً واستعداداً ... !

وعاد السيد ماكلويد من الحرب فقال لسام : « بوسعكم أن تبقوا هنا اذا شئتم ، وسوف أطعمكم ، وأدفع لكم أجراً مقابل عملكم كلما أمكننى ذلك » .

وراح سام يعمل لحساب السيد ماكلويد بينما راحت باتسى تقوم بأعمال الغسيل والنظافة فى بيت السيد ويلسون ، وقد وضعا أعينهما على قطعة أرض جيدة من أراضى جنوب كارولينا التى تصلح لزراعة القطن ورغبا فى شرائها ، وقد وافق السيد ويلسون على بيعها لهما .

وانقضت أربع سنوات قبل أن يتوجه سام فى يوم خالد من أيام عام ١٨٧٠ الى محكمة المنطقة ليسجل قصاصة ورق تثبت ملكيته لخمسة أفدنة .

وسأله كاتب المحكمة : « واسم الجد ؟ » .

« سام فقط فهذا هو كل اسمى » .

فقال الكاتب محذراً : « لا بد أن تعطينى اسم الجد والا كان التسجيل غير قانونى » .

وراح سام يحك رأسه وبعد لحظة من التفكير كان قد استعار اسماً مألوفاً وقال : « سجله باسم سام ماكلويد » .

وطوال العامين التاليين أخذ سام ماكلويد وأبناؤه يستغلون أوقات فراغهم فى استصلاح قطعة الأرض ، وشق الخشب ، وبناء كوخ مكون من ثلاث غرف غطوا أرضه بألواح معوجة من الخشب الذى تنازلت لهم عنه ورشة النجارة ، وأقاموا فرناً من الطين نقلوه من المستنقع ، وخلال ذلك كانت باتسى تعمل فى مطبخ آل ويلسون وبأجرها اشتروا بغلا عجوزاً من أحط الأنواع ، كما اشتروا عربة كسيحة ومحراثاً قديماً .

ولم يكن المسكن الذى شيدوه بالمسكن المناسب بلا شك ، ففيه فرن يستخدم فى الطهى بدلا من الموقد ، وأكياس محشوة بالقش بدلا من الأسرة ، كما كان لديهم مفرش لمائدة المطبخ التى لا تتسع لأكثر من نصف الأسرة فى المرة الواحدة ... ومع كل هذا ، فقد كان ذلك الكوخ بيتهم ، كما كانت الأرض ... أرضهم ، فامتلأت نفوسهم باحترام الذات ، وانتعشت بالأمل ، وفى السنوات التى كان يحالفهم الحظ كانوا يشترون بعض

الكماليات كالسكر للقهوة ، والدخان لغليون الجدة صوفيا المصنوع من قولحة الذرة .

وحينما ولدت مارى جان ماكلويد فى يوليو ١٨٧٥ كانت الابنة الأولى التى تولد فى ظل الحرية وفى بيتهم الخاص ، ولعل ذلك هو السبب فيما كانوا يحسون به من اختلافها عن بقية اخوتها ... !

وشبت الطفلة مارى وتحولت الى بنت قوية البنيان ، وكغيرها من أبناء ماكلويد راحت تعمل فى الحقول منذ مطلع الفجر حتى مغـرب الشمس ، وعندما بلغت التاسعة من العمر كانت قد أصبحت قادرة على جمع ٢٥٠ رطلا من القطن فى اليوم الواحد ، بل وكانت — اذا مرض البغل — تضع النير على كتفيها الصغيرتين وتجـر المحراث بنفسها ... وتمضى الحياة ... وكأنها سلسلة من العمل المتواصل الذى لا تبدو له نهاية لا فى الحاضر ولا فى المستقبل ! ومع ذلك كانت مارى تراودها الأحلام ، وكتبت بعد ذلك بسنوات تقول : « حينما كنت طفلة أعمل فى حقول القطن ، كنت أشاهد رؤيا تطالعنى فيها صور لمبانى وأبواب مفتوحة ترحب بسكانها ، وآمنت ايمانا شديداً بأن هذه الرؤيا لا بد وأن تتحول فى يوم من الأيام الى حقيقة ، فقد كان ايمانى بنفسى عميقاً كالنهر » .

وعندما بلغت مارى الحادية عشرة من عمرها تحقق الحلم والأمل ، وقرر مجلس ارسالية الفـرع الشمالى لكنيسة البريسبيتريان افتتـاح مدرسة للأطفال الزنوج فى مدينة مايزفيل .

وكانت مارى تغنى : « اشرقى أيتها الشمس وانشرى الضياء ومجدى اسم الرب » ، وهى تلتقط لوزات القطن الكثيرة الوبر وتحشو بها كيسها المصنوع من الخيش ، حين انتابها شىء من القلق ، فقد كان بعض اخوتها الكبار قد تركوا البيت ورحلوا ليعملوا فى أماكن أخرى طهاة أو سياس خيول فى اصطبلات أو عمالا باليومية ، وكثيراً ما كانت تتساءل ترى هل سيجنبها أبوها وأمها ... هذا المصير ... !

وكان والداها فقيرين وجاهلين حرما من علوم الكتب ، ولكنهما لم يحرما من ينابيع الفهم الطبيعى العميقة فقالا : « نعم سنجنب مارى هذا المصير ويوماً ما ستسير مرفوعة الرأس » .

وكان على مارى أن تنجز عمل الموسم قبل أى شىء آخر ، وهكذا انقضت بضعة أسابيع من الدراسة قبل أن يأتى صباح ذلك اليوم الرائع الذى أخذت فيه مارى مكانها فى أحد الفصول المدرسية ، وعلى أحد المقاعد الخشبية المصفوفة فى ذلك المبنى الخشبى الذى لم يعرف الطلاء طريقه اليه . والطريف فى هذا المبنى أنه يتكون من غرفتين بجوار شريط السكة الحديد . وكانت الآنسة ايما ويلسون المدرسة امرأة زنجية شابة مهندمة الثياب ، وكانت كلمة « آنسة » تترك فى نفس مارى تأثيراً عميقاً غريباً ، وهى التى لم تسمع فى حياتها من قبل أحداً يذكر اسم زنجى أو زنجية مقروناً بأى لقب .

واستمرت فترة الدراسة أربعة شهور فقط ، عبت مارى خلالها العلم كما تمتص الأسفنجة الجافة الماء . فما أن استطاعت حل طلاسم الأبجدية حتى راحت تقوم بشرحها الى أشقائها وشقيقاتها فى البيت ، كما أخذ والدها وجيرانها يلجأون اليها بمجرد أن بدأت تعرف أسرار الأرقام .

« كيف أكتب وزن بالة من القطن ؟ » .

« ما هى نسبتى المئوية فى محصول هذه السنة ؟ » .

« هل حاصل جمع أرقام فاتورة صراف المخزن صحيح ودقيق ؟ » .

فقد كان هؤلاء الناس ضحايا للغش والخداع طوال حياتهم لأنهم لم يكونوا يعرفون اجراء أبسط العمليات الحسابية .

وفى عام ١٨٨٩ بلغت مارى الرابعة عشرة وكانت قد تعلمت كل ما تستطيع الآنسة ويلسون تلقينه . ثم أصيبت الأسرة فى صيف ذلك العام بضربة قاصمة ، فقد مات البغل ، وبدا لمارى أنه لم يعد هناك مجال للأمل

فى مواصلة التعليم فقد أصبح الشغل الشاغل لجميع أفراد الأسرة هو تعويض الأسرة عن بغلها الفقيد .

غير أن القدر كان يدبر لها شيئاً آخر . ففى مدينة دينيفر النائية بولاية كلورادو كانت تعيش عانس ضئيلة الجسم هادئة الطبع تدعى مارى كريسمان وتنتمى الى طائفة الكويكرز التى تؤمن بأنه ليس لانسان فضل على آخر بسبب اللون ، وكانت أحوال الزنوج فى الولايات الجنوبية تثير أشجانها . فقد كانت تؤمن بأن قيود الجهل لا تقل ثقلا عن القيود الحديدية .

ورأت الآنسة كريسمان أن تمد يد المساعدة للزنوج مهما كان قدر هذه المساعدة ، فجلست الى مكتبها وكتبت للسيد ساترفيلد عميد مدرسة سكوتيا بكونكورد فى ولاية كارولينا الشمالية رسالة تبلغه فيها أنها كانت تدخر من كل دولار تكسبه عشر سنتات « كعشور » تساعد بها الآخرين ، وقالت ان دخلها كخياطة ليس كبيراً ولكنها تأمل فى أن تكون « عشورها » كافية لدفع نفقات تعليم فتاة زنجية واحدة ، وختمت رسالتها بقولها : « أرجوك أن تختار أنت فتاة تثق فى قدرتها على النجاح » .

وحينما تسلم السيد ساترفيلد رسالة الآنسة كريسمان كانت الآنسة اما ويلسون مقيمة فى مدرسة سكوتيا ، وحينما عادت الى مايزفيل بعد ذلك ببضعة أسابيع لتعيد استئناف الدراسة بمدرستها توجهت الى بيت ماكلويد .

وأعلنت بين فرح جميع أفراد الأسرة : « لقد حصلت مارى على منحة دراسية ، وهذا الخطاب يؤكد ذلك ، وكذلك تذكرة سفرها الى كونكورد ، فأعدوها للسفر فوراً ... ستحتاج الى ملابس وزوج أحذية اذ أنها لاتستطيع هناك أن ترتدى الملابس المصنوعة من الخيش أو أن تسير حافية القدمين » .

واقترض والد مارى مبلغاً من أحد البنوك واشترى بجزء منه بغلا للأسرة ، ثم راحت مارى وجدتها تسهران الليالى ليلة بعد أخرى تخيطان ملابس لمارى وتغنيان فقد كانت تلك الأيام بالنسبة لهم أيام سعادة وفرح .

وأخيراً جاء اليوم الموعود وتجمع بمحطة السكة الحديد عدد كبير من

الجيران لتوديع ماري قبل سفرها الطويل ، الذى سيستغرق ثمانى ساعات تنتقل بعدها الى عالم جديد . وقد لفت ملابس ماري فى الورق كما لفوا لها كتكوتاً محمراً ، وراح حذاؤها الجديد يصر فى قدميها بينما كان قلبها يكاد ينخلع من صدرها ، فقد كانت تتمنى هذا السفر ولكنها كانت تتألم من قطع صلاتها بأسرتها ، فكيف ستظل على صلة بهؤلاء الناس الذين أحبتهم كل هذا الحب وهم لا يستطيعون الكتابة اليها أو قراءة رسالاتها اليهم ؟

وأحست الآنسة ويلسون بما يعتلج فى أعماقها من خواطر متصارعة وآمال متضاربة فلفت ذراعها حول كتفيها الصغيرتين وهمست : « اكتبى لى عن كل شيء وسأتلو عليهم خطاباتك » .

وهكذا استطاعت أسرة ماري أن تعرف الكثير عن حياتها فى سكوتيا عن طريق مراسلاتها مع مدرستها الأولى . ووصفت لهم ماري غرفتها التى تقع فى أعلى ذلك المبنى الشاهق المكون من أربعة طوابق !! ويحمل اسم « فيث هول » . ولم يكن يشاركها أحد فى هذه الغرفة غير فتاة واحدة هى آبى جريسلى ، وكان ذلك شيئاً غريباً لا يصدق ، اثنان فقط يعيشان فى غرفة بأكملها ، غرفة حقيقية ، بها أسرة فوقها حشيات ، وبها حوض للغسيل ، وفوق جدرانها علقت الصور واللوحات !!

وكان سكان المبنى يتجمعون أثناء تناول الغداء فى قاعة كبيرة معدة للطعام بالطابق السفلى . ومدت فيها مائدة طويلة تغطيها الملاءات البيضاء ومن فوقها الفازات المزينة بالزهور ، ولكل شخص سكينة وشوكة وملعقة ، وفى البداية كانت تلك الأدوات الفضية مثار قلق ماري وهمها ، ولكنها اعترفت أخيراً لاحدى المدرسات قائلة : « أرجوك يا سيدتى أن تعلمينى طريقة استعمالها ، ففى مايزفيل لا يستعمل الشوك والسكاكين غير البيض فقط ! » .

وبعد أن قطعت ماري شوطاً طويلا فى الحياة عادت بذاكرتها الى أيام الدراسة تسترجع أهم ذكرياتها عن مدرسة سكوتيا ، وكان بعض مدرسيها

وكذلك ناظر المدرسة من البيض ومع ذلك كانوا يأكلون وينشدون الأغانى جنباً الى جنب مع المدرسين والطلبة السود . وقد كتبت مارى تقـول : « كان المدرسون البيض يعلموننا أن لون بشرة الانسان ليس له أى تأثير على قدراته العقلية . وأن التفرقة بسبب اللون أو الدين أو الطبقة جريمة لا تغتفر ... » ، وهكذا تبدد خوف مارى من البيض الى غير رجعة ... وحتى النهاية .

كانت مارى تتعلم أثناء فترات الدراسة اللغة الانجليزية واللاتينية كما كانت تدرس الرياضيات والعلوم ، أما بعد انتهائهـا من الحصص ، وفى الاجازات فكانت تعمل فى المغسل أو المطبخ ، وكانت فخورة بعملها فكتبت فيما بعد تقول : « كانت درجات السلم نظيفة باستمرار وقد أعطانى المشرف أعلى الدرجات على أعمال الكنس والمسح والتلميع والتنفيض والطهى ، فقد كنت أعلم علم اليقين أننى لا بد وأن أتقن عمـلى لأننى كنت أرسى الأساس لحياة حقيقية بمعنى الكلمة » .

ولم تتمكن مارى طوال سنوات دراستها فى سكوتيا من زيارة أسرتها غير مرتين فقط . وكانت المرة الثانية بعد تخرجها وفى الصيف السابق على انتقالها الى شيكاغو لمواصلة العلم فى معهد « مودى بايبل » . وكانت مارى فى تلك الفترة من حياتها تأمل فى أن تصبح مبشرة بالقارة السوداء .

كانت السيدة الشابة التى استقلت القطار فى طريقها الى شيكاغو شخصاً آخر غير الفتاة الصغيرة التى ركبت القطار لأول مرة فى حياتها من مدينة مايزفيل الى كونكورد ، ولكن التعصب ضد السود لم يتغـير ، وعندما وضعت مارى قدمها على أول درجات السلم المؤدى الى عربة القطار الحمراء نهرها المحصل قائلا : « ان عربة الملونين هناك خلف القاطرة مباشرة » . وراح يتفحصها من قمة رأسها حتى أخمص قدميهـا ، وينقل بصره بين ملابسها المهندمة النظيفة وقبعتها المصنوعة من القش وحقيبة السفر التى فى يدها ثم قال : « يا للعجب حتى بعض الزنوج قد أصبح يعتنى بنفسه » .

واتجهت مارى الى عربة الملونين ، عربة ذات مقاعد خشبية تنوء بما عليها وحولها من متاع ، يسودها جو خانق تفوح منه روائح الأجساد التى لم تعرف طريقها الى الحمام أبداً ، وأرضية العربة التى لم تعرف اليها المكانس أو المياه سبيلا . وقد سارت أمام مارى امرأة عجوز ذات شعر أبيض تتعثر وهى تتحسس طريقها فى ممشى العربة والمحصل يحثها متوعداً : « تحركى أيتها البقرة السوداء » .

وكانت مارى هى الطالبة الزنجية الوحيدة فى معهد « مودى بايبل » وكتبت تقول : « كانت عيون الطلبة البيض تخترقنى بنظراتهم التى كان بعضها حانياً وعطوفاً ، وبعضها الآخر يبدو وكأنه يحاول أن يكون حانياً وعطوفاً فى كثير من الخوف والتردد » .

ومرت الأسابيع فى مدينة شيكاغو فى عمل متواصل ، فمن دراسات فى الانجيل الى تدريب على الغناء الجماعى الى خدمة ميدانية . وكان المقصود بالخدمة الميدانية هو الاتصال بنزلاء السجون ووعظهم وارشادهم ، ومساعدة السكارى والمتسولين ، والصلاة مع الخطاة . وقد زارت مارى « بيت هل » وأعجبت أشد الاعجاب بما كانت تؤديه جين آدامز من خدمات لأهل الحى ، وعندما أصبحت مارى مبشرة عملت على أن تستعين بتلك الأفكار النبيلة وتطبقها فى نشاطها .

وفى عام ١٨٩٥ أنهت مارى دراستها فى معهد مودى بايبل وتقدمت فى الحال بطلب تلتمس فيه الحاقها باحدى الارساليات المنتشرة فى أفريقيا ، ولكنها أصيبت بخيبة الأمل فقد رفض مجلس الارساليات طلبها بدعوى أنه «ليس لديهم مكان خال لفتاة تبلغ بالكاد العشرين من العمر» ، وكتبت مارى تقول : « كان ذلك الرفض أكبر ما منيت به من خيبة أمل ، وكانت تلك الأيام أشد وأقسى أيام حياتى » .

وعادت مارى الى الأسرة لتنقل اليهم والى الآنسة ويلسون أنباء فشلها ولكن الآنسة ويلسون لم تكن قد عادت حتى ذلك الوقت الى مايزفيل

بعد انتهاء الفترة الدراسية السابقة . وكان بعض الملاك المحليين قد استطاعوا اقناع مجلس المدرسة باختصار فترة الدراسة من أربعة شهور فى السنة الى شهرين فقط بحجة أن الأطفال السود ليست بهم حاجة الى المدرسة ، كما أن اضاعة شهرين فى التعليم يعتبر بالنسبة لأمثالهم ممن يسعون وراء لقمة الخبز خسارة لا تعوض !! .

وقررت مارى أن تفتح المدرسة وتقوم بادارتها بنفسها حتى تعود الآنسة ويلسون .

وقامت بمسح أرض الفصول وأزالت الغبار عن الكتب ، ثم زارت جيرانها فى مايزفيل معلنة افتتاح المدرسة واستعدادها لتعليم الأطفال اذا ما شاءوا ارسال أطفالهم اليها .

وفى أول يوم من أيام شهر نوفمبر دقت مارى الجرس القديم ، ووقفت تراقب الأطفال فى أسمالهم البالية وهم يصطفون فى صف واحد ، وقد استدارت نحوها وجوه نحو عشرين طفلا أسود صغيراً ، ويوماً بعد يوم أحست أنها ستزداد فهماً لهم كما سيزدادون معرفة بها ، ولسوف تتذوق معهم طعم السعادة التى يتذوقها من يقوم بتعليم من يتعطشون حباً وشوقاً الى العلم والمعرفة .

ووقفت مارى منتصبة القامة تسوى ازارها الأزرق بيديها وقد علت هامتها فوق هامات الأطفال الصغار وراحت تتأمل وجوههم فى زهو وسعادة وحنان ثم قالت : « صباح الخير يا أطفال ... أنا الآنسة ماكلويد » .

٢

لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت الآنسة ماكلويد أنها ولدت لتكون مدرسة ، وأنها تستطيع أن تستغل فى ذلك المكان كل الطاقات التى اختزنتها للقيام بأعمال التبشير فى افريقيا . وقد كتبت فيما بعــد تقول : « كانت أصداء طبول افريقيا لا تزال تدق فى أعماقى وتناديني ، وما كانت لتدعنى أهدأ لحظة طالما كان هناك طفل واحد أو طفلة زنجية واحدة لم تتح له أو لها الفرصة الانسانية لتأكيد الذات والاعتراف بحقه فى حياة كريمة » .

وحوالى عيد الميلاد عادت الآنسة ويلسون الى مدرستها فى مايزفيل ، فالتحقت مارى ماكلويد بوظيفة مدرسة فى معهد هانز ، وهى مدرسة خاصة للزنوج فى أوغسطا بولاية جورجيا ، وفيما هى تقوم بتدريس علم الحساب ، أو ترفع صوتها الرنان بالأغانى مع فرقة المدرسة كانت تطوف برأسهــا الأحلام العريضة عن مساعدة آلاف الأطفال الزنوج الذين لم تتح لهم فرص التعليم .

وفى تلك الأيام بعد ربع قرن من انتهاء الحرب الأهلية كان معظم الأطفال السود الذين يقطنون ولايات الجنوب ما زالوا يعيشون فى ظلمات الجهل . وقد حرم أكثر من ٦٠ ٪ منهم من نعمة القراءة والكتابة ، ومع أن القانون كان يفرض على كل ولاية أن توفر المدارس العامة لأبنائها الا أن كل دولار كانت تخصصه الولايات الجنوبية للتعليم كانت تنفق منــه ٩٣ سنتاً على مدارس الأطفال البيض ، فلا يتبقى لمدارس الزنوج ، وكلها من مدارس المرحلة الأولى ، غير ٧ سنتات فقط ، كما لم يكن فى الجنوب كله مدرسة عامة واحدة عليا (ثانوية) تقبل طالباً زنجياً واحداً .

ومع ذلك كانت الهيئات الدينية تعين بعض مدارس خاصــة للأطفال

الزنوج ، وكان معهد هانز الذى عملت فيه مارى بالتدريس من أحسن هذه المدارس الخاصة ، فقد كانت فيها مكتبة مناسبة ، كما كانت تضم هيئة تدريس غنية بالكفاءات . ففى ذلك الوقت لم تكن معظم مدارس الارساليات الا اسماً على غير مسمى فهى لا تتعدى كونها مبان خشبية متداعية مكونة من صالة واحدة كانت فيما مضى اصطبلا للخيل أو كنيسة متداعية صغيرة ، كما كان التعليم فيها لا يتجاوز الصف السابع من المرحلة الأولى .

وبعد سنوات من التدريس فى معهد هانز انتقلت مارى الى معهد كيندل فى سمتر بولاية كارولينا الشمالية ، ومع ذلك ظلت تحلم بانشاء وتأسيس مدرستها الخاصة ، وهناك قابلت زميلا لها فى التدريس هو البيرتوسى بتيون ، وبعد قصة قصيرة من الغرام ، والتفاهم المشترك ، تم بينهما الزواج ، ومن هناك انتقل الزوجان الى سافانا بولاية جورجيا حيث ولد ابنهما ألبرت ، ثم انتقلا ثانية الى بالاتكا بولاية فلوريدا .

ولم تتوقف السيدة بتيون عن ممارسة التدريس الا خلال فترة قصيرة عندما كان ألبرت لا يزال يحبو ، وظلت طوال عملها بالتدريس تدبر كل ما من شأنه أن يحول حلمها الى حقيقة ، وفيما بعد كتبت تقول : « عندما تجمع لدى مبلغ ضئيل من المال قمت بجولة استكشافية للبحث عن منطقة تصلح أن تكون مكاناً لمدرسة جديدة ، وتكون لها أكبر فائدة مرجوة لأكبر عدد ممكن من الناس » .

وفى جولاتها الاستكشافية وقعت على بقعة آهلة بالناس وتفتقر أشد الافتقار الى المدرسة ، وهى مدينة داينونا بولاية فلوريدا ، وهى مدينة سياحية منتعشة ورائجة يتوافد عليها أثرياء البيض فى فصل الشتاء للاستمتاع بجوها الدافىء وشاطئها البديع . كما كانت تمد فيها خطوط السكك الحديد وتشيد فيها الفنادق ، فأخذت آلاف الأسر الزنجية تتدفق عليها يحدوها الأمل فى العثور على فرص العمل فى فرق مد خطوط السكك الحديدية أو فرق البناء ، أو العمل فى مطابخ الفنادق ومنازل الأثرياء . وكان من المقدر

لأطفال هؤلاء الزنوج أن يواجهوا نفس المصـير الكئيب الذى يواجهه آباؤهم ، ما لم تتوافر لهم فرص التدريب والتعليم .

والواقع أن البيرتوسى لم يكن يرغب فى الانتقال ، ولكن مارى كانت تنفذ دائماً كل ما تصمم عليه . فقامت بتنسيق الكوخ المكون من غرفتين وأعدت له بعض الطعام ثم حزمت ملابسها وملابس صغيرها ألبرت ، ودفعت زوجها الى القسم بأن يلحق بها بعد مدة معينة اذا لم تعد هى اليه قبـل ذلك ..

ثم مضت فى طريقها هى وابنها ألبرت وقد حملت كل ما لديهم من مال ولم يكن غير دولار ونصف ... ! ، وفى الطريق كانت تأمل فى أن تلتقى بأحد فينقلها الى مدينة دايتونا التى تبعد حوالى ٧٠ ميلا .

ووصلت السيدة بتيون وصغيرها ألبرت الى مدينة دايتونا فنزلا عند أسرة كريمة ، وأقاما هناك الى أن تتبين هدفها بوضوح ، ولم يكن الجيران الذين تحدثت معهم عن أحلامها ممن يبعثون على التفاؤل والأمل . فقد كانوا يقولون لها : « وماذا تتوقعين أن تحققى بمدرسة صغيرة هزيلة ، كما أن الزنوج الذين ينسون حقيقة وضعهم يتعرضون هنا لأشد المتاعب » .

وكانت السيدة بتيون تنصت اليهم بأذنيها ، ولكنها لم تكن تسـمح لآرائهم اليائسة بتحطيم روحها وعقلها وقلبها ، وراحت تطوف بحى الزنوج بحثاً عن مكان مناسب لمدرستها ، وعند حافة المدينة وبالقرب من المحيط وبجوار قطعة أرض تغرقها المياه ، وجدت كوخاً متداعياً ، هبطت أرضية مدخله واندثرت ألوانه وتساقط بياضه وطلاؤه ، ولكنه كان يتكون من أربع غرف فى الطابق السفلى وثلاث فى الطابق العلوى وكان المبنى معروضاً للايجار .

واعتبر المالك الأبيض أسباب اقبال السيدة بتيون على هذا الكوخ أسباباً مضحكة وقال وهو يصطنع الرقة : « ولكننا لا نحتاج الى مدرسة أخرى للزنوج فى مقاطعة فولوسيا ــ فهناك واحدة عند كنيسة البابتيست

للملونين ، والتعليم فيها حتى الصف الثالث . وهو أقصى ما تسمح به قدرة الزنوج العقلية على التحصيل والاستيعاب » .

ولكنه عندما عرض الكوخ للايجار مقابل أحد عشر دولاراً فى الشهر اعترفت له السيدة بتيون بأنها لا تملك مثل هذا المبلغ الطائل فقبل ٥٠ سنتاً كايجار مخفض لكوخ قديم متداع مهجور .

وأخذت السيدة بتيون تجوب وبجوارها ألبرت الصغير معسكرات عمال الانشاءات والمبانى بحثاً عن التلاميذ ، ولم يكن بين هؤلاء العمال كثيرون يرغبون فى تعليم أولادهم أو يملكون ما يسمح لهم بتعليمهم ، غير أنها عثرت على خمس بنات تتراوح أعمارهن بين الثامنة والثانية عشرة ارتضى آباؤهم أن يدفعوا ٥٠ سنتاً فى الأسبوع لكل بنت مصاريف تعليمهم .

فراحت السيدة بتيون تنقب فى أكوام القمامة بالمدينة عن قطع الخشب ، والأثاث المحطم ، والمصابيح القديمة ، وأحواض الغسيل وقطع المرايا المشروخة ، أو كل ما يمكن استعماله فى أى غرض من الأغراض . كما طرقت الأبواب الخلفية لبيوت البيض تستجدى كل شىء من النقود الى المسامير . وكان البعض ينفحونها بعض المال ، والبعض الآخر يحسنون عليها بالأطباق المشققة ، والأغطية الممزقة والأوانى الزائدة عن الحاجة .

وقامت مارى بتنظيف هذه المعطيات واصلاحها ، كما أصلحت الكوخ وأثثته بهذه القطع والأشياء ، وقد وصفت ذلك بقولها : « أمضيت الليالى الطويلة بأكملها ساهرة أفكر فى طريقة لتحويل سلال الخوخ الى مقاعد ، وقد ضحك الناس مما كنت أصنعه ، وراح بنو جلدتى يشيرون الى بقولهم « اليكم المتسولة » كما كان الكثير من البيض يقدمون لى مخلفاتهم لمجرد الرغبة فى الخلاص منى » .

وأحرقت السيدة بتيون كتل الخشب وجمعت بعناية الشظايا والبقايا المتفحمة لتستعملها بدلا من الأقلام ، ولم تكن تمر بعشة فراخ دون أن تتوقف

لتجمع الريش المتطاير لتتخذ منه أدوات للكتابة . كما صنعت الأحبار من عصير التوت الناضج ، وحولت صندوقاً الى مكتب لها وحلته بقطعة من قماش الكريتون وقالت : « كان ذلك العمل كله جزء من تدريب المرء لنفسه على انقاذ روحه وبناء ذاته كما كان نوعاً من التدريب على صنع الطوب بغير قش ، وخلق الشيء المفيد من العدم ! » .

ولكن ما من انسان واحد — حتى السيدة بتيون غير العادية — يمكنه أن يدبر أموره بغير نقود فاهتدت الى وسيلة لكسب المال واستعانت بمطبخ صديقة لها فى اعداد كعك شهى من البطاطا ، وكانت تحمل الكعك الشهى الساخن لتبيعه فى معسكرات فرق البناء .

وجمعت بمساعدة تلميذاتها الطحالب من أشجار البلوط لتحشو بها أكياس الخيش ، وصنعت منها حشيات ، ثم أزالت بعناية بالغة الغبار من فوق كتبها المصفوفة فوق مكتبها — وكان عدد تلك الكتب لا يتجاوز الستة — وهى عبارة عن كتاب مقدس ، وكتاب لتعليم الهجاء له غلاف أزرق ، ثم كتاب فى الجغرافيا وآخر فى الجبر ، وكتاب ترانيم وجزء من أشعار جون جرينليف هويتر ، وكان هذا الكتاب الأخير جميل الشكل مجلداً بغلاف من الجلد ، هدية من زوجها البيرتوسى وهما فى فترة الخطوبة .

وفى شهر واحد كان الكوخ قد أصبح مستعداً لاستقبال التلاميذ . وفى أكتوبر عام ١٩٠٤ فتحت مدرسة دايتونا للتعليم والتدريب الصناعى أبوابها للفتيات الزنجيات وأمام عدد لا يتجاوز أصابع اليدين من العاطفين على السيدة بتيون أقيمت حفلة افتتاح بسيطة .

وقالت السيدة بتيون لأصدقائها : « هذه مدرسة من نوع جديد سيدرب فيها الفتيات على الحرف وأعمال البيت ، كما سيتعلمن كيف يكسبن قوتهن ، ولسوف تدرب عقولهن لكى يفكرن ، وأيديهن لكى يعملن ، وقلوبهن لكى تعمر ايماناً وشجاعة » .

ووقفت السيدة بتيون أمام الكوخ تقود تلميذاتها وابنها ألبرت فى ترديد المزمور الثالث والعشرين : « الرب راعىّ فلا يعوزنى شىء ... » .

ثم تلت صلاة قصيرة : « نشكرك أيها الرب لأنك منحتنا هذه المدرسة ولتساعد يا رب هؤلاء الفتيات فى الدخول للتعليم وفى الانتهاء من الدراسة ليقمن بخدمة الآخرين » .

وعندما انتهى الحفل البسيط ودخلت الفتيات الى الكوخ راحت السيدة بتيون تفكر كيف ستشق الطريق الوعر الطويل الذى لا يزال يمتد أمامها ، فقد كانت حافظة نقودها خاوية حقاً ولكن رصيدها من الحماسة كان ضخماً الى حد أن أى بنك مهما كبر ما كان ليأمل فى أن يمتلك يوماً رصيداً مثله .

وسارت الحياة فى المدرسة فى طريق مرسوم ، نصف النهار فى تحصيل الدروس والنصف الآخر فى العمل من أجل صفاء الروح وطهارة الجسد ، واستمرت السيدة بتيون تصنع الكعك من البطاطا وتركب دراجتها المتهالكة مخترقة شبه الجزيرة لتصل الى أجمل منطقة بالمدينة لتبيـع الكعك لنزلاء الفنـادق .

وقد استطاعت أن تعقد صداقات كثيرة مع بعض هؤلاء النزلاء كما اعتاد بعض السادة القيام بنزهات قصيرة أمام مداخل الفنادق التى ينزلون بها ليشتروا قطع الكعك ، ويتبادلوا الحديث مع السـيدة البائعة ذات الصوت العميق . وكانت السيدة بتيون متينة البنيان ، غليظة التقاطيع ، ومع ذلك كانت تملك صفة غير واضحة تجعل الجمال ليس بالشىء الضرورى بالنسبة لها . ومعها بدأ بعض البيض لا يحسون بأى غضاضة فى أن يبدوا اهتمامهم بمدرسة لأطفال الزنوج ولا سيما اذا كان الأطفال لا يتعلمون فيها غير التواضع والخدمة جنباً الى جنب مع قليل من الحساب والقراءة .

ولم تحاول السيدة بتيون أن تعارض آراءهم . فقد كانت تعرف أن تلميذاتها لا بد أن يتعلمن الطهى والخدمة وهى المهن الوحيـدة المفتوحة أمامهن عندما يبلغن سن العمل ، ولكنها مع ذلك لم تتوقف فى أى وقت عن

أن تحلم فى أعماقها بيوم يصبح فيه بنو جلدتها مواطنين يتمتعون بحقهم الكامل فى الحياة ، ويأخذون مكانهم اللائق فى المجتمع ، وفى أن يصبح تلاميذها فى يوم من الأيام رجال أعمال ، وعلماء ، ورجال دولة ، وممرضين ، وأطباء ، ومحامين ، ومدرسين ، يساهمون فى اثراء مجتمعهم بكل ما يملكون من قدرات وملكات خلاقة .

وتعرفت السيدة بتيون على سيد مهذب يدعى جيمس جامبل كان قد أصبح عميلا دائماً من عملائها ، وفى مناسبات كثيرة كانت تصف له مدرستها وهى تبيع له الكعك المصنوع من البطاطا ، فحدثته عن مبناها الرئيسى الذى يطلق عليه اسم « فيث هول » وعن مكتبتها وكنيستها الصغيرة وفصولها الكثيرة وعنابر القسم الداخلى ، وقالت له يوماً : « ولكنى أتمنى أن تصبح أحد أمناء هذه المدرسة » .

وفى صباح يوم من الأيام وقبل أن يهل فصل الشتاء — فصل السياحة والمتعة — الى نهايته ، وقفت عربة ليموزين أمام المدرسة ، ونزل منها السيد جامبل مستنداً الى ذراع السائق وراح يتلفت حوله .. ويتساءل : فيث هول ؟ ! منطقة جميلة مزروعة ؟ ! طلبة يرتدون زياً موحداً ؟ فأين هذا كله ؟

لم يكن أمامه غير سقيفة بجوار الكوخ تستخدم كمطبخ وعدد من البنات يحملن البطاطا الساخنة ويسقطنها فى قزان يتصاعد منه البخار حيث تقوم السيدة بتيون بهرسها . وفى أثناء ذلك كانت فتاة تقرأ فى كتاب الجغرافيا بصوت مرتفع بينما راح ألبرت الصغير يلعب فى هدوء وصمت تحت شجرة قريبة .

وخلعت السيدة بتيون مريلتها وتقدمت لترحب بالسيد جامبل وراح كل منهما ينظر فى عين الآخر ، ثم قال السيد جامبل متجهماً : « ولكن أين المدرسة التى كنت تريدين منى أن أكون أحد أمنائها ؟ » .

فأجابته السيدة بتيون : « هنا فى مخيلتى وروحى ، فقد كنت أطلب

منك أن تكون أميناً لحلم رائع ، وأمل يعيش هنـا فى قلبى من أجل بنى جلدتى » .

وسادت لحظة صمت أخرج خلالها السيد جامبل دفتر شيكاته ثم قال وهو يحرر شيكاً : « سأعود فى الشتاء القادم ، وآمل أن أكون موجوداً يوم تدشين وافتتاح مبنى (الفيث هول) » .

٣

واتسعت مدرسة السيدة بتيـون بسرعة ، وكبرت معهـا مشاكلها ، وأضافت اليها صفوفاً جديدة ، كما ضمت اليها تلاميذ أكثر . وفى أقل من عامين أصبحت المدرسة تضم مائتين وخمسين تلميذة وأربع مدرسات . وكان عدد كبير من التلميذات وجميع المدرسات يقمن فى المدرسة . وكانت المعلمة تدفع ثلاثة دولارات ونصف فى الأسبوع مقابل السكن والطعام . ولم يكن الطعام يتعدى — فى أكثر الأحيان — طبقاً من الفاصـوليا الجافة والذرة المجروش . ومع أن السيدة بتيون استأجرت الكوخ المجاور لها الا أنها كانت لا تزال فى أمس الحاجة الى أماكن أخرى والى مؤن وفيرة ونقود كثيرة .

وكانت كلما بلى حذاؤها صنعت لنفسها زوجاً جديداً من الورق المقوى ، ودربت تلميـذاتها على أداء وترتيل الأغانى الشـعبية الزنجية والترانيم الدينية . وكانت تجعلهم يغنون فى الحفلات مقابل بعض النقود ، وسرعان ما أصبح من المألوف دعوة تلك الفتيات للغناء فى كنائس البيض ، وفنادقهم ، وفى صالوناتهم للترفيه عن ضيوفهم .

وضاعفت السيدة بتيون جهودها فى الالتجاء الى أهل الخير وكتبت تقول « تعلمت أن أهم مهمة لى وأعظم رسالة هى أن أكون متسـولة ناجحة !

فقرعت أجراس الأبواب ، ودخلت أماكن باردة بغير مرشد وبدون دعوة وكتبت مقالات لمن ينشرها ويطبعها ، ووزعت الكتيبات ، وقطعت أميالا لا عد لها فى طرق متربة فوق دراجتى المتهالكة . وغزوت الكنائس واقتحمت الأندية ووقفت أمام الأكواخ ، ودخلت الغرف التجارية . فاذا رفض من قصدته أن يسهم بأى شىء ، كنت أنحنى له بأدب شديد شاكرة له فضله على منحى بعضاً من وقته الثمين . وما كنت لأترك الابتسامة تفارق شفتى مهما كان قلبى مثقلا بالأحزان والهموم . لأننى نبذت كل ما من شأنه أن يثبط همتى ويضعف عزيمتى فالله وحتى الانسان لا يقبل أن يستخدم انساناً فاتر العزيمة ضعيف الارادة ! » .

فى ذلك الوقت فتحت المدرسة فصولا مسائية يحضرها البالغون ثلاث مرات فى الأسبوع . وكان الرجال والنساء الذين يشتركون فى هذه الفصول ممن يعملون بوابين وجامعى قمامة ، أو غسالات فى المنازل وما الى ذلك .. وكان هؤلاء الناس كثيراً ما يحملون اليها أشياء ثمينة ! من مجلات قديمة ، وملابس استغنى عنها ، وأكياس قمح فارغة ، وثلاجة جيلاتى مستهلكة ، كما كانوا يسلمون اليها أحياناً الهبات التى تنفحهم اياها ربات البيوت سراً لأنهن معجبات بالسيدة بتيون ، ولكنهن لا يملكن الشجاعة لاعلان مساعداتهن لمدرسة تربى أطفال الزنوج .

وكتبت السيدة بتيون تقول : « كان من المفروض أن أحقق التوازن بين الايرادات والمصروفات ، ولكن هذا التوازن لم يتحقق أبداً ، بل على العكس كانت هناك دائماً فجوة تأخذ فى الاتساع يوماً بعد يوم . ولم أجد حلا لهذه المشكلة الا أن نتوقف عن استئجار المكان وأن نشترى لأنفسنا قطعة أرض نقيم عليها مبنانا الخاص » .

ولكن ... أين توجد قطعة الأرض المنشودة ! ؟ ... وللمرة الثانية راحت السيدة بتيون تجوب المدينة من أدناها الى أقصاها حتى استقرت أخيراً على قطعة أرض مهملة يغطيها رشح الماء تعرف باسم « هيلز هول » وتقع فى

شارع أوك ، وبعـد كثير من الاستفسار عرفت مكان مالكها الذى قال متسائلا : « ماذا ؟ أتريدين شراء تلك الأرض الخربة ؟ » .

فقالت السيدة بتيون : « ولكننى لا أرى أرضاً خربة بل آلاف الأولاد والبنات الذين يدخلون ويخرجون من أبواب مفتوحة » .

واتفقا على مائتى دولار ثمناً لقطعة الأرض ، كما اتفقـا على أن تدفع مقدماً ٥ دولارات على سبيل العربون ، وكتبت السيدة بتيون : « أنه لم يكن يعرف أبداً أننى ما كنت أملك هذه الدولارات الخمسة ، ولكننى وعدته بالعودة بعد عدة أيام ومعى العربون ، وقد جمعت هـذا المبلغ من بيع الجيلاتى والكعك المصنوع من البطاطا الى عمال المبانى والانشاءات ، ثم أخذت المبلغ اليه كومة من العملات الصغيرة ملفوفة فى منديلى ! » .

وكان بعض العمال قد أصبحوا أصدقاء لمدرسة السيدة بتيون ، فكانوا فى أوقات فراغهم يساعدونها فى تجفيف المستنقع ، وحرق ما يمكن حرقه من القمامة ودفن الباقى ، وقد وصفت السيدة بتيون طريقتها فى « استجداء المقاولين حمولة من الرمال أو من الطوب المستعمل » ، كما سعت وراء النجارين والحدادين وعمال البياض لتدعوهم الى الحفلات التى كانت تقيمها فى المدرسـة حيث يأتون ويأكلون حلواها الشهية وينشـدون الأغانى « ليصبحوا بعد ذلك على استعداد ورغبة للقيام بأى عمل من أجلى وفى الحال وبغير مقابل » . وقد أصبحت هذه الحفلات التى تقدم فيها القهوة فيما بعد وسيلة للتعارف والتآلف والمحبة .

وبهذه الطريقة أخذ مبنى خشبى مكون من أربعة طوابق ومدخل أمامى تعلوه سقيفة يتشكل تدريجياً ، وعندما غطى جزء من سقف المبنى نقلت السيدة بتيون تلميذاتها اليه . وكان العمل فى المبنى يتوقف من وقت لآخر كلما نفدت النقود من جيب السيدة بتيون . فكانت تشمر عن ساعد الجد وتدبر المال بطريقة أو أخرى . وفى خلال عامين متواليين كان المبنى قد أصبح على حد تعبيرها « يصلى — ويغنى — ويتكلم ! » . .

وفى عام ١٩٠٧ افتتح مبنى « الفيث هول » رسمياً ، وقد كتبت على مدخله من الخارج عبارة « ادخل لتتعلم » كما كتبت عليــه من الداخل « واخرج لتخدم » .

ثم جففت السيدة بتيون بقية أجزاء المستنقع بمساعدة تلميذاتها وعامل أجير ، وأقامت مكانه حديقة تحيط بالمدرسة وسرعان ما أصبح فى هذه الحديقة قصب السكر والبطاطا واللوز والفراولة . وفى محل أقامته على جانب الطريق كانت تباع أفضل أنواع الفاكهة والخضر ، مما كان يجعل الناس يتوافدون بسياراتهم قاطعين أميالا طويلة ليشتروا منــه الفاكهة النضرة الناضجة والخضر الطازجة .

وبينما الناس يشترون كانت السيدة بتيون تمارس قدرتها على الاقناع حتى ساهم سائح ـ قادم من ريد جوود بولاية تيوجيرسى ـ بخمسة وسبعين دولاراً فاشترت فى الحال بقرة أطلقت عليها مجاملة اســم ريدجوود ، كما تبرعت سيدة ـ من لانجميدو بماساشوستس ـ ببقــرة أخرى أسمتها « لونجميدو » وسرعان ما أصبح بالمدرسة بالاضافة الى ذلك بغل وثلاثة خنازير .

واتسعت ادارة المدرسة الى حد لم يعد معه من الممكن لفرد واحد أن يتولى تدبير كل شيء ، فعينت السيدة بتيون احدى المدرسات الأربع وهى السيدة فرانسيس كايزر قائمة بأعمال الناظرة . وبذلك أتيح للسيدة بتيون الوقت الكافى للتركيز على مهمة جمع النقود وهى أكثر المهام حيوية وأشدها ضرورة .

ومع ذلك ظلت عيونها مفتوحة على كل ما يدور فى الفصـــول فكانت الطالبات يتوقعن أن تطل عليهن السيدة بتيون فى أى لحظة لتوجــه اليهن أسئلة تثير حرجهن اذا لم يكن قد أدين الواجبات المدرسية على خير وجه ، والويل كل الويل للتلميذة التى تمر بقصاصة ورق ملقاة على الأرض فلا تكلف خاطرها بالتقاطها ، فقد تظهر السيدة بتيون فجأة وكأن الأرض قد

انشقت عنها لتقول لها « كيف تمرين بهذه القشة فلا تعنين بالتقاطها ؟ ! . لا تكونى كسولة والا ... »

وكانت تقوم بانتظام بحملات تفتيشية على الغرف لتتـأكد من ترتيب الأسرة ، ونظافة دورات المياه ، ونظافة وجوه البنات وأجسادهن والاعتناء بملابسهن ، وكانت معتادة على تعليق الشعارات المكتوبة بخط اليد فوق جدران الفصول « تهاقينا لمن يعرف القراءة » أو « تحدث بلطف وادخر صوتك لتمجيد الرب » .

وكان جميع من بالمدرسة يقومون بأعمال النظافة والحياكة كما كانوا يتعلمون ، ويخبزون ويعدون الطعام ، ويقومون بالخدمة على الموائد ويغنون الأغانى والترانيم . وكان الغناء من أنجح الوسائل فى توفير المال للمدرسة الى حد دفع السيدة بتيون الى تكوين فرق غنائية من التلميذات موحدات الزى ليقمن بجولات فنية فى ولايات الشمال .

وفى ذلك الوقت تطورت الدراسة فى المدرسة حتى شملت مناهج التعليم الثانوى ، وأصبحت المدرسة تخرج الفتيات القادرات على القيام بأعمال البيت أو التدريس أو التمريض . وضاقت « الفيث هول » بمن فيها بمجرد الانتهاء من بنائها ، وصار من الضرورى اقامة مبنى آخر جديد !

واستطاعت السيدة بتيون كالعادة أن تدبر المال اللازم لهذا الغرض . فشيدت مبنى آخر من الطوب أطلقت عليه اسم « هوايت هول » لأن معظم المال الذى أنفق عليه كان قد تبرع به رجل يدعى توماس هـ. هوايت .

وكانت حفلة الافتتاح التى أقيمت فى عام ١٩١٦ تختلف أشد الاختلاف عن تلك الحفلة المتواضعة التى أقيمت قبل ذلك بسنوات لتدشين كوخ عام ١٩٠٤ . ففى هذا الحفل سار موكب مهيب من المدرسين بقبعاتهم وأروابهم متجها نحو الكنيسة على أنغام موسيقى فرقة المدرسة ، وقد امتلأت القاعة الضخمة ذات الستمائة مقعد بجمهور غفير أخذ يستمع الى كلمات نائب رئيس الولايات المتحدة وحاكم ولاية فلوريدا . ثم تقبلت السيدة بتيون

مفاتيح المبنى الجديد ، وبيد مرتعشة سلمتها الى جيمس ن . جامبل رئيس مجلس الأمناء .

وبينما المدرسة تزداد نمواً ورسوخاً وشموخاً كانت السيدة بتيون تحول طاقاتها نحو خدمة المجتمع ، فاتسعت دائرة اهتماماتها كما تتسع وتتابع دوائر الماء بعد القاء حصاة فى المجرى الهادىء . وانصب اهتمامها بالدرجة الأولى على مدرستها ولكن كان هناك أيضاً متسع للاهتمام بمشاكل أخرى كثيرة . ففى غابات الصنوبر وداخل ثكنات قذرة كان يقيم عمال تقطير زيت التربنتينا . وفيهـا كان العمال السابقون فى مد خطـوط السكة الحديد يجمعون القار ويقطرونه لاستخراج التربنتينا . وكان هؤلاء العمال يعيشون مع أسرهم على دخول هزيلة لا تفى بأبسط ضرورات الحيـاة ، فكانت حياتهم كئيبة قاتمة كما كانت الأمراض والعلل تنهش أجسادهم الهـزيلة النحيلة .

وعندما كان بعض النـاس يمرون بهذه الثكنات فانهم كانوا يجزعون ويرتعدون ثم يديرون ظهورهم وينصرفون الى حال سـبيلهم ، وما كانت السيدة بتيون لتستطيع أن تفعل ذلك ، فلم تمض سنوات خمس حتى كانت قد افتتحت خمس مدارس فى هذه المنطقة قام بالتدريس فيها طلبة مدرستها ، وتعلم فيها أطفال هذه المعسكرات القراءة والكتابة كما تعلمت فيها أمهاتهن الطهى والحياكة ، ولم يمض بعض الوقت حتى أصبح الآباء يكسبون أجوراً أكبر وينفقون على الخمر مبالغ أقل .

وفى هذه الفترة وجدت السيدة بتيون متسعاً من الوقت لرعاية مشاريع أخرى كثيرة ومتنوعة ، ففى يوم من الأيام استدعيت من المدرسة لملازمة طالبة كانت تبكى فى فراشها من شـدة الألم ، وقد أعلن الطبيب الزنجى الشاب الذى جاء لعيادتها على عجل « أنها تعانى التهاباً حاداً فى الزائدة الدودية وتحتاج الى عملية جراحية عاجلة » .

ولم يكن فى مدينة دايتونا بيتش كلها مستشفى واحد يقبل أن يجرى

فيه طبيب زنجي عملية جراحية ، أو أن ينزل فيه للعلاج مريض زنجي واحد ، وأسرعت السيدة بتيون الى جراح من البيض تستعطفه أن يساعد مريضتها الصغيرة ، وحرك رجاؤها الحار مشاعره فقبل أخيراً .

وعندما توجهت السيدة بتيون الى المستشفى لزيارة الفتاة فى صباح اليوم التالى للعملية وجدت كلارا ترقد فى فراش أعد لها فى مكان ضيق ومنفصل بجوار المطبخ ، وكانت الروائح التى تتصاعد من المطبخ تدفع الفتاة الى الغثيان مما كان يجعل من العسير شفاءها من آثار الجراحة بسرعة .

وكان هذا المنظر بمثابة دعوة للتفكير والعمل فبحثت السيدة بتيون من فورها عن كوخ ثان لتشتريه . وقدرت تكاليف شراء مائدة للعمليات ، وأدوات الجراحة ، وسريرين ولوازمهما بخمسة آلاف دولار . وكالعادة أخذت تبعث بخطاباتها فى طول البلاد وعرضها تدعو كل من يخطر اسمه على بالها أن يسهم بما فى طاقته لتنفيذ هذا المشروع ، وفى شهرواحد تجمع لديها المبلغ المطلوب . وخلال شهرين كان المستشفى الصغير ذى السريرين مستعداً للعمل واستقبال المرضى . وقد أطلقت عليه اسم « مستشفى ماكلويد » على اسم أبيها الذى لقى ربه فى ذلك الوقت . ومع الزمن اتسع المستشفى ، وكان لا بد أن يتسع فقد مضى أكثر من عشرين عاماً على انشائه قبل أن تفكر مدينة دايتونا بيتش فى اقامة مستشفى عام لعلاج المواطنين السود .

سمحت السيدة بتيون لنفسها بشىء من الترف فى يوم افتتاح المستشفى ، فأرسلت لوالدتها تذكرة سفر تدعوها للحضور ، ولم تكن باتسى ماكلويد العجوز الطيبة قد ركبت فى حياتها قطاراً ، ولا وقعت عيناها قبل ذلك الوقت على حفيدها ألبرت ، أو « فيث هول » بأرضها المنسقة وحدائقها الغناء ، فجاءت لتمتع بصرها بكل هذه النعم ولترى ابنتها مارى — محبوبة ومحترمة — ترعى وتوجه حياة المئات من الشباب الموفور حيوية ورجاء وأملا .

ومن وقت لآخر كان ينزل على الآنسة بتيون ضـيوف من معارفها القدامى ، ومن دينيفر جاءت الآنسة مارى كريسمان المدرسة التى تنتمى الى طائفة الكويكرز لترى الطفلة الزنجية « التى سيكون لها فى يوم من الأيام شأن فى الحياة » ، كما جاء أيضاً زوجها البيرتوس الذى لم تنقطع خلال السنوات الطويلة صلاتهما ، فقد ظل الود متصلا بينهما عن طريق تبادل الرسائل ، وظن البيرتوس بعض الوقت أنه يستطيع الاقامة فى دايتونا بيتش ولكنه بحث عن عمل فلم يجد غير وظيفة حوذى ، فرحل ، وعندما ترك ألبرت الصغير دايتونا ليلتحق بالمدرسة الثانوية بمعهد هاتز ، كان والده البيرتوس قد وجد لنفسه وظيفة مدرس بمدرسة للأولاد فى جورجيا ، وظل هناك حتى مات فى عام ١٩١٩ .

وما كانت ادارة مدرسة ، أو انشاء مستشفى ، أو مدارس فى معسكرات تقطير التربنتينا لتستوعب كل طاقات السيدة بتيون التى لا حد لها ، فاشتركت فى عدد من الأندية الوطنية ، وانضمت الى الجماعات التى تكافح من أجل نفس المبادىء التى تعتز بها وتناضل من أجلها ووهبت حياتها من أجل تحقيقها وهى تحسين قدر بنى جلدتها .

وكانت تعلم علم اليقين أنه ما من سبيل لحصول الزنوج على حقهم كاملا فى الحياة والمجتمع ، الا بالحصول على حق الانتخاب وكانت ولايات الجنوب لا تعدم الحيل لعرقلة ممارسة الزنوج لحقهم فى التصـويت . فمن فرض ضرائب باهظة لا يتحملها الزنوج ، الى عقد امتحانات قاسية للتأكد من معرفة القراءة والكتابة ، وبلغ من صعوبة هذه الامتحـانات أن الزنوج الذين لم يصيبوا من العلم الا القليـل لا يستطيعون النجاح فيها ، الى غير ذلك من حيل وعراقيل كانت تربك الناخبين الزنوج ، وتحـيرهم ، وتجعل ممارستهم حق الانتخاب ضرباً من المحال .

ولم يقتصر أهل الجنوب على الحيل القانونية وحدها ، بل لجأوا الى كل الوسائل حتى غير المشروعة منها ، ومن بين الذين يؤمنون بسيادة البيض

لم يكن هناك من هم أشد قسوة ووحشية وهمجية فى العمل على التزام الزنوج مواقعهم ، من أعضـاء المنظمة الارهابيـة المعروفة باسم منظمة الكوكلوكس كلان ، وهى عصابة تتكون من جماعات من البيض الذين يغطون وجوههم بأقنعة ويتسربلون بعباءات سوداء تجعلهم يشبهون الأشباح والعفاريت ، ويتجولون فى الريف ليلا ليوقعوا الرعب فى قـلوب الزنوج الجهلة المتطيرين ، كما كانوا يلجأون فى كثير من الأحيان الى القيام بعمليات الارهاب كاشعال الحرائق ، وضرب الزنوج وتوقيع العقوبات عليهم بغير محاكمة أو قانون .

ولم يكن ذلك ليثنى السيدة بتيون عن عزمها لمواصلة نضالها باصرار من أجل منح الزنوج حق التصويت . فعقدت الفصول المسائية لتدريس الحقوق المدنية ، كما كانت تقطع شوارع حى الزنوج بالمدينة جيئة وذهابا داعية اياهم الى دفـع ضريبة الانتخاب ، واستطاعت بالرجـاء والتشجيع والالحاح أن تحمل حوالى مائة زنجى من سكان منطقة « فولوسيا » على تسجيل أنفسهم فى قوائم الناخبين ، من بينهم احدى عشرة مدرسـة من المدرسات العـاملات بمدرستها ، ففى ذلك الوقت كان « تعديل سوزان ب. أنتونى » وقد أدخل على الدستور معترفاً للمرأة بحقها فى الانتخاب .

وذات يوم ، وقبل أن تجرى انتخابات عام ١٩٢٠ بفترة وجيزة ترامت الى المدرسة أنباء عن أن عصابة الكلان ستقوم بمسيرة ليلية على سـبيل الارهاب للسيدة بتيون لمنعها من التمادى فى نشاطها السياسى .

وربما لم يكن زعماء الجماعة يعرفون أن السيدة بتيون كانت فى ذلك الوقت بمدينة نيويورك تقوم بحملة واسعة لجمع التبرعات لجمعية الصليب الأحمـر ، وفى اليوم المحدد للمسيرة كانت السيدة فرانسيس كايزر هى المسئولة عن المدرسة ، فاستدعت الفتيات الكبيرات السن وأبلغتهن النبأ ، ولكى لا يسقط الرعب فى نفوس الأطفال الصغار أنهوا يومهم الدراسى مبكراً وكأن القدر لا يخبىء لهم شيئاً .

وبعد أن وضعوا الصغار فى مخادعهم ، تجمعت السيدة كايزر والمدرسات والفتيات الكبيرات السن عند النوافذ الأمامية للمدرسة والتصقوا ببعضهم البعض وراحوا ينتظرون فى الظلام ...

وسرعان ما لاح وميض المشاعل ، ثم أخذ يزداد قرباً ، ومن الظلام ظهر رجال ملثمون يمتطون خيول ملثمة ، ومن خلفهم فصيلة من المشاة يسترون وجوههم خلف الأقنعة ، وتنحى الموكب بمشاعله عن الطريق الرئيسى متجها نحو المدرسة ، ومروا بالمدخل الأمامى ثم عادوا ليختفوا فى الظلام من جديد .. وشكرا للرب فلم تكن تلك الزيارة أكثر من « تحذير وانذار ».

وعادت السيدة بتيون على جناح السرعة ، فقد كانت تتوقع أن يعاود الكلان مسيرتهم فى ليلة الانتخابات ، وقد حدث ، ولكن السيدة بتيون كانت قد أعدت كل شيء لمواجهة الموقف ، أمرت بفتح جميع النوافذ والأبواب ، واضاءة جميع الأنوار وكأن المدرسة فى أحد حفلاتها المألوفة وأمرت الفتيات بانشاد الأغانى ، ثم أخذت مكانا لها عند المدخل الأمامى وحيدة ومجردة من أى شيء غير عباءتها الطويلة البيضاء .

وحاول أحد المدرسين اثناءها عن موقفها محذراً اياها بقوله : « لا تجعلى من نفسك هدفاً لهم ... فهم لا يتورعون عن قتلك ! » .

فأجابته السيدة بتيون : « بل سأقف هنا فى النور وكأننى رمز للحرية . أما هؤلاء القتلة فهم أبناء الظلام » .

ومر الوقت بطيئاً ثقيلا ، بينما أصوات الفتيات العذبة تنشد فى ليل نوفمبر البهيم دعاء جميلا ...

لا تحزن مهما يكن الأمر ،
لأن الرب لا يتركك .

وأخيراً ظهر وميض المشاعل ، ودوى فى الفضاء صوت نفخة رهيبة يقشعر لها البدن وكأنها تصدر من بوق سحرى ينفخ فيه جنى ، وظهرت

الرموز والشارات المتوهجة وخلفها موكب من ثمانين رجلا أخفوا أنفسهم بالعباءات ، واقترب الموكب من الطريق الموصل الى مدخل المدرسة ثم توقف لتتقدم مجموعة من ستة رجال بخطى ثقيلة بطيئة متجهة نحو السيدة بتيون ، وفى يد واحد منهم صفيحة كيروسين .

ومن خلف القناع انطلق صوت أجش متحشرج يقول : « اننا نحذرك ! كفى عن حشو رءوس زنوجك بأفكارك السخيفة عن حق الانتخاب والا أحرقنا كل مبانيك دون أن ندع فيها طوبة واحـــدة تقوم على أخرى ، ونسويها بالأرض ! » .

ومن وراء السيدة بتيون ارتفعت أصوات المنشدات وهن يرددن :

ان روحى فى يد الرب

ولن تسقط واحدة من شعر رأسى

وأجابت السيدة بتيون بصوت خشن يفيض بالغضب : « أحرقوها ان استطعتم أيها الجبناء ! سأقيمها ثانية أعلى وأكبر ، وقوى الشر والظلام لن تسود أبداً ... أبداً ! » .

فترنح الرجال ، ثم تراجعوا الى الوراء ، وبعـــد لحظات من التردد تفرقوا تاركين خلفهم صفيحة الكيروسين على الطريق المؤدى الى المدرسة ، ومد بواب المدرسة يده وحمل الصفيحة .

فقالت السيدة بتيون : « حسناً » ان المدرسة كانت دائماً فى حاجة الى صفيحة كيروسين اضافية .

وفى صبيحة يوم الانتخابات سار فى شوارع دايتونا موكب من نوع آخر . وكتبت السيدة بتيون تقول : « فى اليوم التالى كنت أقف أمام مركز الانتخابات فى تمام الساعة الثامنة صباحاً ومن خلفى طابور من الزنوج الذين جاءوا مثلى للادلاء بأصـــواتهم ، ولكنهم تركونا ننتظر حتى آخر النهار ، وبالرغم من ذلك أدلينا بأصواتنا ! » .

وفى عام ١٩٢٣ اندمجت مدرسة السيدة بتيون مع كلية للرجال تدعى

« معهد كوكمان » كانت تديره كنيسة الميثوديست . وقد ظلت السيدة بتيون رئيسة « لكلية بتيون — كوكماز للصغار » وكانت هذه الكلية تضم ستمائة تلميذ ، واثنين وثلاثين مدرساً ومدرسة ، كما كانت تشمل أربعة عشر مبنى مقاماً على قطعة أرض واسعة مساحتها حوالى ١٥ فداناً .

فى ذلك الحين أشرفت السيدة بتيون على سن الخمسين وهى السن التى تزداد فيها عادة حركة الانسان بطئاً ، ولكن مارى عاشت حتى سن الثمانين ، وكانت الثلاثين سنة الأخيرة من حياتهـا فى بعض الأحيان أكثر ازدحاماً بالنشاط والعمل من النصف قرن الأول من حياتها .

وكثيراً ما كانت تظل تعمـل حتى منتصف الليـل ، ومع ذلك كانت تستدعى سكرتيرتها فى الرابعة صباحاً ، وحينما تجاوزت السيدة بتيون سن السبعين جاءت مثالة تدعى روث برال لتنحت لها تمثالا ، فطال بهـا الانتظار والجهد حتى اشتكت من أنها قد فقدت عشرة أرطال من وزنها جرياً وراء السيدة بتيون الكثيرة المشاغل قبل أن تتم نحت تمثال لها ، وقد توسلت لها فى رجاء : « أتوسل اليك يا سيدتى أن ترفقى بى ، فأنا أستطيع العمل طوال النهار فقط ، أو طوال الليل فقط ، ولكننى لا أستطيع العمل ليلا ونهاراً » .

وكان الطلب شديداً ومستمراً على السـيدة بتيون باعتبارها خطيبة عظيمة التأثير ، وقد تحدثت فى عام واحد أكثرمن ٥٠٠ مرة فى اجتماعات عقدت فى أربعين ولاية . والواقع أنهـا كانت بشعرها الأبيض وجسمها المهيب وعصاتها الثقيلة التى لا تفارقها شخصية لها سحرها الخاص . وما كان الناس يأتون الا ليستمعوا الى رسالتها وفصاحتها وهى تطلب من الأمة والدولة « أن تحرر شعبها » .

وكانت تقول « اذا أردت أن تعرف فى أى اتجاه ستنمو الشجرة فلا بد أن تنظر الى فروعها العلوية ، ولكى تعرف الى أين سيتجه هذا الجنس أو ذاك من بنى البشر فلا بد أن ننظر الى أبناء هذا الجنس الذين استطاعوا

أن يصنعوا شيئاً ويصبحوا قادة ، فالجنس يحكم عليه من هذه المجموعة القائدة الرائدة وليس من مجموع الجماهير التى لم تتح لها فرص التطور والرقى » .

وكانت السيدة بتيون أينما تذهب تقول لقوميا « سيروا فى النور وارفعوا الرؤوس ، فالايمان ليس بالشىء الهين ، وعندما نؤمن ، يتعين أن نكون عمالقة مخلصين فى ايماننا » . وتعلقت قلوب الشباب بها حتى أطلقوا عليها لقب « السيدة الأولى » لبنى جنسها .

كانت مارى صديقة حميمة للسيدة اليانور روزفلت السيدة الأولى فى البيت الأبيض . وكثيراً ما كان الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت يستغل حكمة السيدة بتيون ، وعندما أنشأ ادارة وطنية للشباب لمساعدتهم على ايجاد أعمال لهم خلال أزمة الكساد العظيم الذى ساد البلاد فى فترة الثلاثينيات ، اعتبر الرئيس روزفلت السيدة بتيون بمثابة مديرة لشئون السود ، كما عينها مساعدة مدنية خاصة حين أنشأ كتائب الجيش النسائى الأمريكى أثناء الحرب العالمية الثانية . وكانت تتردد كثيراً على البيت الأبيض ولم يخف الرئيس روزفلت سروره لرؤيتها لأنها ــ على حد قوله ــ لم تكن تطلب شيئاً لنفسها .

وقالت السيدة بتيون لأصدقائها « ما من مرة دخلت فيها البيت الأبيض الا وكنت أتساءل بدهشة ترى كيف حدث هذا كله لتلك الطفلة الفقيرة التى ولدت ونشأت فى حقول القطن ! ؟ » .

وظلت السيدة بتيون تتمسك طوال حياتها وأينما وجدت وسارت بحقوقها كانسان ، وكثيراً ما كانت تقابل فى جولاتها بالبلاد أصحاب مطاعم يرفضون خدمتها ، أو عمال أسانسيرات يرفضون ادخالها ، أو محصلين فى قطارات يسخرون منها بوقاحة « امضغى تذكرتك يا خالتى » فتبتسم وتسألهم « ومن من أولاد اختى أنتم ؟! » .

فى عام ١٩٤٠ أمضت بضعة أسابيع فى مستشفى جون هوبكنز ببلتيمور .

فقد كانت تعانى من أزمة ربو حادة ، وكان طبيبها يأمل فى تخفيف حالتها ومساعدتها على التنفس بيسر باجراء عملية جراحية فى أنفها ، وفى ذلك الوقت لم يكن يسمح للزنوج بالدخول الى مستشفى جون هوبكنز فما بالك بالحصول على غرفة خاصة ! ولكنهم أرغموا على أن يعدوا للسيدة بتيون غرفة خاصة بسبب ما تتمتع به من شهرة خاصة .

ولم يكن مسموحا للأطباء أو الممرضين الزنوج أن يعملوا فى مستشفى جون هوبكنز . وعندما وصلت السيدة بتيون المستشفى تقدمت اليها فى غرفتها امرأة بيضاء شابة وقالت « مارى سوف أكون ممرضتك » .

وقالت السيدة بتيون « أنت لست صديقتى أو قريبتى حتى تنادينى باسمى الأول » .

واعتذرت الممرضة ، ثم راحت تروى القصة لكل من بالمستشفى ، ولكن يبدو أن أطراف هذه القصة لم تصل الى أسماع الجراح الذى أجرى للسيدة بتيون الجراحة . فبينما كانت ترقد فوق مائدة العمليات أمرها الجراح قائلا « أديرى رأسك يا مارى » .

وكانت فى تلك اللحظة واقعة تحت تأثير البنج كما كان أنفها مشدوداً بأدوات الجراحة فلم تستطع الرد عليه ، ولكنه عندما عاد لزيارتها فى صباح اليوم التالى أخذت تحدثه عن مشاعرها .

وقال الطبيب « اغفرى لى يا سيدتى ، فتلك عادتى فى الكلام وما قصدت شيئا من عدم الاحترام » .

وفى عصر ذلك اليوم وصلت الى غرفة السيدة بتيون سلة زهور جميلة وقالت احدى الممرضات انها المرة الأولى فى تاريخ ذلك الطبيب يرسل فيها زهوراً الى احدى مريضاته .

وعندما انعقدت الدورة الأولى لهيئة الأمم المتحدة بمدينة سان فرانسسكو فى شهر ابريل عام ١٩٤٥ ، كانت السيدة بتيون من بين الحاضرين فقد كانت شديدة الاهتمام بتلك المنظمة الجديدة التى قامت من أجل « تأكيد

الحقوق الأساسية للانســان ، والاعتراف بقيمــة الانسان وكرامته ، وبالحقوق المتساوية لجميع النساء والرجال وجميع الأمم كبيرها وصغيرها ».

وفى كفاحها اليومى الطويل والمضنى كانت جميع أعمالها جزءاً لا يتجزأ مما أحرزه الزنوج من تقدم ، وقد غمرتها السعادة عندما استطاعت أخيراً أن تقول « لقد وصلت الى الحد الذى لم تعد فيه عواطفى تقتصر على جنس واحد من البشر . بل أصبحت عواطفى الآن قادرة على احتضان الجنس البشرى بأكمله فأنا أحب جميع الناس والأجناس » .

وقد حضرت نفس اجتماع هيئة الأمم السيدة اليانور روزفلت بمفردها لأن الموت كان قد اختطف الرئيس روزفلت قبل ذلك بفترة وجيزة من الزمن . وكانت السيدة اليانور روزفلت قد أهدت السيدة بتيون احدى عصى الرئيس الراحل كتذكار صداقة طويلة وحارة .

وقد ظلت السيدة بتيون تستخدم هــذه العصاة حتى آخــر يوم فى حيــاتها . وكانت تتوكأ عليهــا فى صباح ذلك اليــوم الحار من أيام عام ١٩٥٠ وهى تسير فى أحد شوارع مدينة مايزفيل المتسخة ، وتخترق ذلك الشارع الذى تعرفه تماما ، وقد عادت الى مدينتها لتلقى عليها نظرة أخيرة .

ولقد تغيرت أشياء كثيرة فى المدينــة ، ولم يعد هناك أى أثر لذلك الكوخ الذى شيده أبوها ، كما تغيرت وجوه عمال الحصاد الذين كانت تراهم فى الأكواخ ، ولكن هناك فى نهاية ذلك الطــريق وبجوار شريط السكة الحديد كانت مدرسة الآنسة ويلسون القديمة ما زالت قائمة فى مكانها أكثر قدماً وأشد تداعياً ، فقد كانت بعد انقضاء ستين عاما المدرسة الوحيدة للزنوج فى مدينة مايزفيل .

ولكن الله مد فى أجل السيدة بتيون المسنة المتوجعة حتى علمت أن زنوج مايزفيل لم تعد بهم حاجة الى مدرسة السيدة ويلسون ، ففى ١٧ مايو عام ١٩٥٤ أصدرت المحكمة الفيدرالية العليــا حكماً يبيح للأطفال الزنوج دخول جميع المدارس جنباً الى جنب مع الأطفال البيض .

وعندما توقف قلب السيدة بتيون عن الحياة فى ١٨ مايو عام ١٩٥٥ ، رقدت فى سلام يظللها حلم طالما عاشت من أجله وقد أوشك الآن أن يكون حقيقة : « لن يكون هناك تعليم للسود وآخر للبيض ، بل سيكون هناك تعليم واحد مشترك يضم البيض والسود معاً . وهأنذا أدعوكم يا بنى جنسى أن تعدوا أنفسكم لمواجهة الحياة بشجاعة وأطالبكم بالشجاعة لا لأنكم سود ، ولكن لأن الحياة ذاتها تتطلب الشجاعة فى سائر الجنس البشرى » .

امیلیا ایرهارت

Amelia Earhart

الطيران متعة

١

فى أواخر عام ١٩٦١ وصل الى أستاذ علم الأجناس فى جامعة كاليفورنيا طرد مرسل من جزيرة سيبان من جزر المحيط الباسفيكى . وكان الطرد يحتوى على سبعة أرطال من الأسنان والعظام الآدمية ، ومع الطرد رسالة تطلب من الأستاذ أن يستخدم علمه وخبرته للحكم فى مسألة على قدر كبير من الأهمية ، فيدلى برأيه العلمى فيما اذا كانت هذه العظام هى حقاً من بقايا الطيارة المفقودة اميليا ايرهارت .

كانت اميليا ايرهارت من الطيارين القلائل الذين ظهروا فى بداية العهد بالطيران والطائرات ، والى جانب ذلك كانت أول قائدة لطائرة من النساء وكانت على قدر من الرقة والجمال ، طويلة القامة ، رشيقة القوام ، ذات عينين رماديتين وشعر ناعم مرسل ، وتعلو شفتيها على الدوام ابتسامة عريضة تضفى عليها خفة روح محببة . وقد جذبت خلال الفترة من ١٨٩٨ حتى عام ١٩٣٧ خيال الملايين ممن يحلمون بالمغامرة .

فى تلك الأيام كانت الطائرات لا تزال من الندرة بحيث أنه كلما حلقت طائرة فى السماء ، كان الناس يندفعون من البيوت والنوافذ متطلعين بأعناقهم ، ويتابعون برءوسهم الطائرة حيثما تطير ، ومع ذلك كانت « ا. ا. » (كما كانت تسمى نفسها) تجوب فى ذلك الوقت السماء فى طائرة واهية بدائية التركيب تسجل وتضرب الأرقام القياسية فى الطيران ، منذ أكثر من ربع قرن قبل ظهور وانتشار الطيران السريع المتواصل فى طائرات الركاب

النفاثة التى توصف حالياً بالفخامة والضخامة . وكانت أيامها تعد فى تاريخ الطيران ــ عصر الرواد الأوائل .

وفى عام ١٩٣٧ كان اسم اميليا ايرهارت من الأسماء المألوفة فى كل بيت ، وعندما اختفت هى وملاح طائرتها ــ فريد نونان ــ فى يوم من أيام شهر يوليو أثناء طيرانها حول العالم ، رفض الكثيرون أن يصدقوا أن « ا. ا. » الرشيقة الحلوة الجذابة قد اختفت الى الأبد ، وظل الأمل يراودهم فى أن تكون قد تمكنت من الهبوط بطائرتها فى مكان ما ، وراجت عنها شائعة تقول أنها كانت تقوم بمهمة سرية بتكليف من الحكومة ولكن المدفعية اليابانية أصابت طائرتها وأسقطتها وأسرتها . ثم تتعاقب الأخبار والشائعات وتختلف القصــص والروايات فمن قائل انها أعدمت هى ونونان رميــاً بالرصاص باعتبارهما جاسوسين ، ومن قائل انهما ما زالا أسيرين فى احدى جزر الباسيفيك المجهولة .

وفى أواخر الخمسينات بدأ مراسل صحفى بسان فرانسيسكو البحث عن حل لهذا اللغز ، فسمع أن عدداً كبيراً من سكان جزيرة سيبان يؤكدون أن امرأة بيضاء شابة قد عاشت بينهم فترة من الوقت ثم ماتت ودفنت فى قبر معين . كما قدم الجنود الذين عسكروا فى الجزيرة أثناء الحرب تقارير عن عثورهم على بعض الأدلة التى تشير الى وجودها هناك . بل وزعم أحد الجنود أنه شاهد صورة فوتوغرافية للآنسة ايرهارت وهى تقف فى أحد المطارات بجوار طائرة يابانية .

وسافر الصحفى الى سيبان وحمل مجموعة العظام من ذلك القبر وعاد بها الى جامعــة كاليفورنيا . وفى ٥ ديســمبر عام ١٩٦١ نشرت جريدة النيويورك تايمز نتائج التحاليل الدقيقة التى أجراها أستاذ علم الأجناس تحت عناوين مثيرة : الغموض ما يزال يحيط بمصير اميليا ايرهارت . عظام سيبان ليست عظامها .

واليكم قصة حياة اميليا ايرهارت
أول قائدة طيـــارة من النســاء

***

ولدت اميليا فى كانزاس فى ٢٤ يوليو عام ١٨٩٨ . وكان أبوها يعمل محامياً فى شركة سكة حديد رود ايلاند . وكانت وظيفته تحتم عليه وعلى أسرته كثرة التنقل ، وكانت اميليا وشقيقتها موريل تعيشان بعض الوقت، مع جدتهما أوتيس ، كما كانتا تعيشان فى أحيان أخرى مع أبويهما . فتتنقلا من مدرسة الى مدرسة كلما انتقلت الأسرة من بلدة الى أخرى . والتحقت اميليا بست مدارس ثانوية خلال أربع سنوات ، وعندما تخرجت من مدرسة هايد بارك الثانوية بشيكاغو كتبت عنها زميلة لها تحت الصورة التذكارية السنوية : « هذه الفتاة التى ترتدى الزى البنى تفضل أن تعيش بمفردها وتسير فى الحياة وحيدة » .

وظلت اميليا تعيش وتسير فى الحياة بمفردها وهى تبحث فيما حولها عن شيء يرضيها . فالتحقت فترة من الوقت بمدرسة خاصة بالقرب من فيلادلفيا ؛ ولكن الحرب العالمية الأولى كانت قد اندلعت فى القارة الأوروبية فتطلعت اميليا الى تقديم المساعدة ، ومن هناك رحلت الى تورنتو بكندا حيث عملت ممرضة فى الصليب الأحمر . ومن خبرتها فى المستشفى أخذت تهتم بالأدوية والعلاج فسجلت نفسها فى كلية الطب بجامعة كولومبيا بمدينة نيويورك . وبعد ذلك بسنوات كثيرة كتبت « ا. ا. » تقول : « توليت ثمانية وعشرين وظيفة وعملا مختلفاً ، وانى لأرجو أن أتولى مائتى وثمانين عملا آخر مختلفاً ؛ فالتجربة ، ومعرفة أناس جدد هى فى اعتقادى أفضل مائة مرة مما تتلقاه من علم فى المعاهد والكليات ، ففى التجول والأسفار يجد الانسان أينما ذهب وحيثما هبط ما لم يكن يتوقعه أو يحلم به » .

أمضت اميليا فصل الشتاء فى جامعة كولومبيا ، ثم سافرت الى كاليفورنيا

لتمضية الاجازة الصيفية مع أسرتها ، وهناك وجدت الشيء الذى « لم تكن تتوقعه » فى حياتها ! .

ففى عصر يوم من أيام الآحاد ، وبينما هى وأعضاء أسرتها يشاهدون بعض الرياضيين الشبان وهم يطيرون بطائراتهم فى مطار جوى بلونج بيتش بكاليفورنيا ، تملكتها عاطفة مفاجئة وسيطرت عليها فكرة واحدة فتوسلت الى أبيها أن يسأل أحدهم « عن مدى الوقت الذى يستغرقه الانسان حتى يتعلم الطيران وكم يكلفه ذلك ؟ » .

وكان السيد ايرهارت سريع التعرف على الناس لبقاً ، فلم يمض بعض الوقت حتى كان قد عرف الكثير من المعلومات عن عدد الساعات المطلوبة لتعليم الطيران وهى تتراوح ما بين خمس الى عشر ساعات ، ويتكلف حوالى الألف دولار .. مما جعله يعتقد أن ذلك ضرباً من المحال بالنسبة لها .

ثم عادت الأسرة الى البيت ، ولكن صورة الطائرات لم تبرح خيال اميليا منذ ذلك اليوم والى الأبد ، وعادت الى المطار كدبوس يجذبه مغناطيس . ولم يكن المطار أكثر من مساحة منبسطة من الأرض تحيط بها آبار البترول . ودفعت أجرة قيامها برحلة بالطائرة فأخذها فرانك هوكس فى جولة قصيرة ، وقالت اميليا : « ما ان ارتفعنا عن الأرض حتى عرفت أننى لا بد أن أطير فى يوم من الأيام بمفردى ، فعلى بعد عشرات الأميال كان المحيط يبدو لى واضحاً وكأننى أشاهده عن قرب ، كما بدا لى أن تلال هوليوود تبتسم فى وجهى وأنا أطل من مقعد الطيار فتملكنى الاحساس بأننى أكون مع المحيط والتلال مجموعة من الأصدقاء الأعزاء » .

وتركت « ا. ا. » قلبها معلقاً فى السماء ، ولكنها نزلت الى الأرض لتكسب قوتها . وفى البداية تولت وظيفة فى شركة للتليفونات ، ثم عملا فى استوديو تصوير ، وأينما كانت تعمل كانت تنفق كل ما تحصل عليه فى دروس الطيران .

وذات يوم ، وفيما هى تقوم بجولة فى السوق رأت سترة بديعة مصنوعة

من الجلد مما يرتديه الطيارون ، وكانت السترة فى الواقع تليــق بطيار محترف . فدفعت ثمنها عشرين دولاراً ، وعادت الى منزلها وهى تكاد « تطير » من الفرح ، ثم أخرجت السترة من ربطتها وراحت تتأملها ثانية ، فوجدتها جديدة ولامعة على عكس سترات الطيارين المستعملة فأحست بشىء من خيبة الأمل . كانت السترة فى حاجة الى بعض التجاعيد ، ووجدت حلا لهذه المسألة ، وطوال ثلاث ليال ظلت ترتدى هذه السترة فوق قميص نومها وتنام بها حتى تجعدت !

وفى السنوات التالية راحت « ا. ا. » تطير كلما استطاعت وأينما استطاعت الى ذلك سبيلا ، ولكنها لم تكن تحلم أن يكون الطيران فى يوم من الأيام هو المورد الوحيد لرزقها . فظلت تبحث لها عن عمل ترضى عنه ، وكانت شقيقتها موريل تعمل مدرسة ، فاعتقدت « ا. ا. » أنها تستطيع هى الأخرى القيام بهذا العمل ، فالتحقت بمدرسة صيفية بجامعة هارفارد ، وحصلت أخيراً على وظيفة مدرسة فى دينيون سيتلمنت هاوس ببوسطن مقابل ٦٠ دولاراً فى الشهر .

وفى صباح يوم مشحون بالعمــل ، وبينما هى تقوم بتدريس اللغــة الانجليزية فى فصل شديد الصخب يضم أطفالا من ايطاليا والصين وسوريا استدعوها الى المكتب لترد على مكالمة تليفونية ، وجاءها صوت المتكلم : « أما زلت مهتمة بالطيران يا آنســة ايرهارت ؟ » وراحت اميليا تخمن ما يدور فى رأس هذا الملاكلم ! وقطعاً للشك باليقين توجهت اليه فى مكتبه فعلمت أنه يطلب منها أن تكون المسافرة الوحيدة فى طائرة ستعبر الأطلنطى.

ولم يكن عبور المحيط بالطائرة فى عام ١٩٢٨ بالأمر الهين بالنسبة للرجال كما لم تكن تلك بالرحلة التى قامت بها من قبل احدى النساء . ولكن فى ذلك الوقت كان رجلان فقط هما الطيار ويلمر (بيل) ستلتز ، والميكانيكى لو (ســليم) جوردون على وشك عبور هــذا المحيط بطائرة تســمى « الصداقة » . وقد تبنت هذه الرحلة ، وتكفلت بجميع نفقــاتها سيدة

اشترطت أن تشترك فى الرحلة لمرأة ، وكانت الطائرة « الصداقة » ذات ثلاثة محركات أنيقة ورشيقة يبلغ طول جناحيها ٧٢ قدماً ، وقد طلى هيكلها باللون البرتقالى ، وجناحاها باللون الذهبى ، وزودت بعوامات تمكنها من الهبوط فوق الماء ، تلك كانت فرصة العمر لاميليا ايرهارت التى تتحرق شوقاً للاشتراك فى هذه الرحلة ولو كمرافقة .

وبعد أسابيع طويلة من الاعداد للرحلة ، أقلعت « الصداقة » من مطار بوسطن فى صباح يوم أحد ميممة وجهها نحو قرية صغيرة تدعى تريبس وهى من قرى الصيادين المتناثرة بجزيرة نيوفوندلند ، فهذه الجزيرة الشمالية التى ترتفع فى قلب المحيط تعد أقصر طريق مباشر يربط القارة الأمريكية بشواطىء انجلترا ، وكان من المقرر أن تنتهى رحلة « الصداقة » فى ميناء سوثهمبتون المطل على القنال الانجليزى .

وكانت الطائرات حتى عام ١٩٢٨ عندما تحلق فى السماء تصبح تحت رحمة الرياح والجو ، كما كانت خزاناتها لا تتسع لكميات كبيرة من الوقود الذى يكفى لمواجهة احتياجات الطيران لمسافات طويلة فى ظروف الرياح الشديدة . كما لم تكن مزودة بالغرف المكيفة الهواء والضغط مما يسمح للطيار أن يخترق الهواء البارد ليعلو بطائرته فوق العاصفة . لذلك ظل ستلتز وجوردون ومعهم الراكبة الوحيدة محبوسين فى قرية تريبس حيث كانت التقارير التى يتلقونها عن حالة الجو لا تسمح لهم بالطيران . فقد كان الضباب كثيفاً ودرجة الرطوبة عالية . وظلوا طوال اقامتهم الاجبارية فى تلك القرية يأكلون لحم الأرانب المحفوظ ، ولحم الضأن المسلوق ، كما راحوا يمضون وقت الفراغ فى صيد السمك أو فى التريض سيراً على الأقدام ، بينما يتلقون عن طريق الراديو أنباء الجو السيىء يوماً بعد آخر .

ومضى أسبوعان طويلان مملان ، استعدوا خلالهما للطيران أكثر من مرة الى حد أنهم عندما أقلعوا بالفعل فى باكورة يوم ١٧ يونيو لم يأت أحد لمشاهدتهم ... وانزلقت « الصداقة » فوق الماء ثم أخذت تعلوا فى الهواء ،

وكما لم يأت أحد لوداعهم عند اقلاعهم من جزيرة نيوفوندلند ، كذلك لم يجدوا أحداً فى استقبالهم عندما هبطوا بالطائرة بعد رحلة استمرت عشرين ساعة وأربعين دقيقة تماماً . بعد أن نفد كل ما لديهم من بنزين ، وكانوا قد انحرفوا قليلا عن خط المسير ، فبدلا من أن يهبطوا فى سوثهمبتون لمست طائرتهم المياه بالقرب من ميناء بيرى بورت فى جنوب ويلز .

وكان يوماً ممطراً كئيباً ، وقد خلى الميناء من الناس باستثناء عدد من العمال الذين يعملون فى السكة الحديد ، وبعض المواطنين الذين كانوا يتجولون فى شوارع الميناء ، وعندما رست الطائرة فوق الماء لم يعرها أحد أى اهتمام ، فزحف ستلتز وجوردون فوق احدى العوامات ، وراحا يصيحان دون أن يلتفت اليهما أحد . وأخيراً أطلت «ا. ا.» من نافذة الطائرة وأخذت تلوح بجنون بفوطة بيضاء فخلع بعض العمال جاكتته ، وراح يرد عليها مداعباً وكأنه يشترك فى لعبة مسلية .

وأخيراً وبعد مضى أكثر من ساعة ، جاء بعض رجال البوليس فى قارب ليتبينوا جلية أمر هذه الطائرة العائمة والتى ربما يكون طاقمها فى حاجة الى مساعدة ! .

فرد عليه ملاحو الطائرة : « لقد جئنا الآن من أمريكا » .

ورد الضابط ببرود ، وكأنه لا يدرى حقيقة ما حدث : « حسناً ، ومرحباً بكم » !

وفيما بعد اتضح أن رحلة « الصداقة » كانت بالنسبة لاميليا ايرهارت أكثر من مجرد صداقة . فقد كانت بداية قصة حب ، مع أحد الذين شاركوا فى الاعداد لهذه الرحلة وهو جورج بالمر بتنام ، وقد ظل بعد انتهاء الرحلة يساعد اميليا ويشجعها ويدعوها للاشتراك فى مغامرات أخرى ، ولم يكن التشجيع هو دائماً الشيء الوحيد الذى يبديه جورج نحو اميليا حتى جاء وقت كتب فيه اليها رسالة تقول : « ان قبعتك قد أصبحت خطراً عاماً ، وعليك أن تعملى شيئاً بالنسبة لها اذا كان لا مفر من ارتدائها » .

وسواء كان ذلك استجابة لنصيحة چورچ أو غير ذلك ، فقـد خلعت «ا. ا.» القبعة ولم تعد تلبسها الا فى حالات الضرورة القصوى . ومع الزمن أصبح من الأشياء المألوفة أن يراها الناس عارية الرأس يتطاير شـعرها القصير مع الهواء . كما ألف الناس رؤيتها فى ملابسها المفضلة المكونة من فستان واسع ، وقميص من الحرير وايشارب زاهى الألوان .

وقد ظل چورچ بالمر بتنام عدة سنوات يطلب منها الزواج ، وظلت اميليا ترفض طلبه ، فما كانت تتصور نفسها قادرة على أن تكون حبيسة مطبخ ، فمطبخها هو مقعد الطيار ، والطيران بالنسبة لها جزء لا يتجزأ من حياتها بل هو الحياة ذاتها .

وكان بتنام يدرك حاجتها الى الحرية ، فوعد بأن لا يحرمها من الطيران فى أى وقت تشاء .

وفى فبراير عام ١٩٣١ أصبحت أميليا ايرهارت أخيراً السيدة چورچ بالمر بتنام ، وقد تم هذا التحول فى حفل زواج بسيط أقيم فى بيت حماتها . وقبل مراسم الزواج بلحظات وضعت اميليا فى يد خطيبها وعلى وجهها علامات الجد رسالة جاء بها ما يلى : « اننى أرجوك ألا تدع أحدنا يتدخل فى عمل الآخر أو ألعابه ، كما أرجوك أيضاً ألا تدع أحداً يطلع على مسراتنا أو خلافاتنا الخاصة ، فأنا لا أضمن أن يستمر طويلا احتمالى للالتزامات التى ستفرضها على قيود الزوجية ، وأنا لا أطيق الحياة داخل قفص حتى ولو كان هذا القفص محبباً الى قلبى ... ولكنى أعدك بأننى سأبذل أقصى ما فى وسعى من جهد وبكل طريقة لاسعادك » .

وظل بتنام يساعد « ا. ا. » بعد الزواج كما كان يساعدها قبله . وكانت تكره الحديث عن حياتها الخاصة ، فاذا ما سألها أحد عن حياتهما معاً كانت تقول : « ان حياتنا معاً شركة معقولة ومقبولة ، فلزوجى أعماله وألعابه الخاصة ، كما أن لى ألعابى وأعمالى الخاصة ، غير أن أسلوب الاشراف المتبادل يؤدى دوره بنجاح ، وهناك الكثير من الأشياء المشتركة فيما نعمله أو نلعبه ! » .

منذ عبرت اميليا الأطلنطى فى « الصداقة » كمسافرة ، وهى تفكر فى ذلك اليوم الذى تستطيع فيه أن تعبر المحيط بمفردها كطيارة . وعندما جاء عام ١٩٣٢ كانت قد طارت أكثر من ألف ساعة ، وأصبحت تملك طائرة مستعملة حمراء اللون من طراز اللوكهيد فيما ، وقد أعدت كل شىء لتركب فيها محركاً جديداً من طراز « واسب » ليمكنها من الطيران لمسافات طويلة .

وفى هدوء وعناية أعدت طائرتها ونفسها للسفر مسافات طويلة . فعندما يطير الطيار وهو « أعمى » تصبح الأدوات والمعدات بمثابة العينين ، فزودت الطائرة بجهاز لقياس الارتفاع لتقيس به مدى ارتفاعهـا فوق المحيط ، ورسام للضغط الجوى ليسجل ما اذا كانت الطائرة تعلو فى الحقيقـة أم تنخفض ، وعداد للسرعة . وقالت اميليا تفسر ذلك : « ان هذه الأجهزة والأدوات على قدر بالغ من الأهمية ، فعندما يسود الظلام أو يسقط الضباب يتعذر على المرء أن يتبين فى أى اتجاه يطير الى أعلى أم الى أسفل ، وهل ينطلق فى سبيله آمناً مطمئناً أم يندفع نحو دمار سريع ومفاجىء » .

وزودت «ا. ا.» طائرتها بكميات اضافية كبيرة من الوقود وزيت المحرك ، وأخذت لنفسها « ترموس » ملأته بالحساء ، كما أخذت علبة من عصير الطماطم ، ولم تحمل غـير ما عليها من ملابس وهى عبارة عن توزلك ، وقميص من الحرير ، ونظارات ، وسترة طيران من الجلد . ونصحها أصدقاؤها بأن تأخذ بعض الملابس والأطعمة الاضـافية ولكنها رفضت لأن الملابس والأطعمة الاضافية تعنى زيادة فى وزن الطائرة مما يسبب مزيداً من الهم والقلق ثم « ان سندويتشات الكافيار لن تخفف من وقع الكارثة على الطيار عندما تهوى به الطائرة فى المحيط ! » .

وفى مساء ٢٠ مايو ١٩٣٢ أقلعت « ا. ا. » من نيوفوندلند متجهة ناحية الشرق وطارت فى هدوء الليل وحيدة لا يؤنسها فى وحدتها غير النجوم ، التى كانت تزين السماء كما ترصع الزهور الحمراء المروج الخضراء . وقد بدا لاميليا أنها تستطيع التقاط باقة من هذه النجوم بمجرد أن تمد يدها من نافذة الطائرة . ومن تحتها كان المحيط على النقيض من النجوم ، بهيماً حالك

السواد صاخباً موحشاً ، واميليا ايرهارت هى وطائرتها لا تعدو أن تكون ذرة ضئيلة هائمة من الحياة تسبح فى الفضاء اللانهائى .

وجاءت السحب فحجبت وجه القمر ، وهبت العاصفة وأومض البرق ، ثم أرعدت الرعود ، واهتزت الطائرة الصغيرة وارتجت ، ووراء النافذة امتد الظلام الأسود وانتشر حالكاً ، واميليا لا ترى شيئاً غير لوحة القيادة التى يضيئها ضوء خافت شاحب يكشف بالكاد مجموعة الأدوات والأزرار الصغيرة التى تتوقف عليها حياة الطيار .

وفجأة توقف جهاز قياس الارتفاع وراحت أسهمه تدور على غير هدى فلا يسجل شيئاً ، ولمحت « ا. ا. » انفتاحاً بين السحب فيممت شطرها ، فقد يسعدها الحظ فتنفذ منها لتعلو فوق العاصفة والسحب . وظلت متجهة بطائرتها الى أعلى لأكثر من نصف ساعة حتى لاحظت فوق زجاج النافذة طبقة خفيفة لزجة ولكنها شديدة الخطر . كما رأت طبقات من الثلج تتراكم على جناحى الطائرة ، وجمدت البرودة عداد الدورات ، وسقطت الطائرة فجأة فى دوامة ، وسجل رسام الضغط الجوى هبوطاً قدره ٣٠٠٠ قدم .

وكتبت « ا. ا. » تصف هذه المرحلة بقولها : « لم أعرف تماماً الى متى ظلت الطائرة تدور بى فى قلب الدوامة ، ولكن الشىء الذى أذكره أننى حاولت كل ما يمكن أن يفعله طيار عندما تقع طائرته فى الدوامة . وقد استعدت سيطرتى على الطائرة عندما أدى الارتفاع المنخفض الى ذوبان الثلج المتراكم على جناحى الطائرة . وعندما نجحت أخيراً فى تصحيح اتجاه الطائرة واستعادة توازنها ، كنت قد أصبحت أرى من خلال الظلمة الجاثمة حولى وتحتى قمم السحب البيضاء وهى قريبة منى مما يدعو الى الراحة والهدوء والاطمئنان » .

وقد ظلت تطير فى قلب العاصفة الهادرة خمس ساعات متواصلة قبل أن تعود الى الطيران الطبيعى وحيدة الا من أفكارها وخواطرها ، غير أن القدر لم يكف عن العبث بها فى تلك الليلة ، فقد لاحظت لساناً صغيراً من اللهب يتصاعد من ماسورة الغاز العادم . وكان هذا اللسان على ضآلته

قادراً على أن يأكل كل شيء فى طريقه فيخرق تدريجياً الماسورة المعـدنية وعندئذ « سأموت ، ولكن هل سأموت غرقاً أم حرقاً ؟ » .

وراحت تطمئن نفسها « ربما لا يحدث هذا أو ذاك » ومع ذلك لم يكن بيدها أن تفعل شيئاً ، وما كان عليها الا أن تنتظر . فالعودة مستحيلة لأنها لن تستطيع الهبوط فى ميناء جراس فى الظـلام ، ولم يكن أمامها الا أن تتقدم وتتقدم .

وظلت تتقدم ثم سرعان ما بدت لها أضـواء الفجر ، وفى الضـوء الشفاف بدا لسان النار المتصاعد فى ماسورة العادم غير ذى خطر ، ثم رأت تتفاً من سحابة تسبح فوق وجه الماء كأنها قطع من القطن المندوف ثم بزغت الشمس ونشرت أشـعتها ممـا حملها الى سـتر عينيها وراء نظـارتها السوداء .

وقد كتبت اميليا فيما بعد تقول : « ان الصباح الباكر هو أجمل وأنسب وقت للطيران ففى ذلك الوقت يكتسى الهواء بالندى فيصير ثقيلا وناعماً وتستطيع الطائرة أن تنزلق فوقه مسافات طويلة » .

فى صباح ذلك اليوم بالذات .. يوم ٢١ مايو .. لم يكن الطيران هو ما تريده اميليا ايرهارت بل كان أقصى ما ترجوه هو أن تهبط بسلام لأنها عندما تنبهت الى خزانات الوقود الاحتياطى وجدتها توشك على النفاد ، وبات من الضرورى أن تهبـط ، وأن تهبط فحسب ... ! فمـا عاد من الضرورى أن تعرف أين تهبط ، غير أنها فى تلك اللحظة كانت تطير فوق حافة جزيرة ايرلندا ، ومن تحتها امتدت الى مرمى البصر حقول خضراء زاهية ترعى فيها الأبقار هنا وهناك ، فاختارت مكاناً فسيحاً بعيداً عن تلك الأبقار ثم هبطت فى مرعى لفلاح يدعى جالاثار ، ومن المرعى ظهر رجل تكسو وجهه أمارات الدهشة وأطلت اميليـا ايرهارت برأسها من كوة الطائرة وقالت للرجـل المشدوه وللمرة الثانية « لقـد وصلت الآن من أمريكا » ! .

٢

كانت تلك الرحلة بالنسبة لاميليا ايرهارت ، هى بداية حياتها العامة ، ففى أوروبا وأمريكا أقيمت لها حفلات التكريم ، كما منحت الأوسمة والنياشين . ووصلتها آلاف الرسائل التى كتب جزء كبير منها بأيدى أطفال وشباب وصغار . وقد كتب اليها شاب صغير من كنتكى رسالة تقول « اننى أرجو أن أتعلم الطيران على يديك ، ولسوف أدفع لك أجرك حتى لو ظللت أقوم بخدمتك طول حياتى ... فأنا الآن لا أملك شيئا . . وأبى يعمل حمالا فى منجم فحم » . ومن متشجان جاءتها رسالة تقول : « اننى أبلغ من العمر خمسة عشر عاما ، ووزنى ١٠٥ أرطال ، هادىء الطبع وأريد مشاهدة العالم ، ولا أملك مالا ولكننى سأستعمل عقلى على أحسن وجه ممكن » .

وكثرت مشاغل اميليا ايرهارت فى السنوات الخمس التالية . فمن القاء محاضرات الى كتابة مقالات الى تصميم أزياء وغيرها من الأعمال والمشاغل ، واستطاعت أن تفوز بالمركز الأول فى فنون كثيرة ، فقد كانت أول امرأة تقود طائرة تشبه طائرة الهيليكوبتر ، وأول قائدة طائرة تخترق سماء الولايات المتحدة من أقصاها لأدناها ، كما كانت أول امرأة تحصل على وسام الجدارة فى الطيران بقرار من الكونجرس . وفى يناير عام ١٩٣٥ عبرت بمفردها المحيط الباسيفيكى من هاواى الى كاليفورنيا . وفى مايو من نفس السنة طارت ــ بدون توقف ــ من مدينة المكسيك الى نيويورك ثم نيوجيرسى ، وقطعت خلال هذه الرحلة ٢١٢٥ ميلا فى ثمانى عشرة ساعة وثمانى عشرة دقيقة .

وقد قال أحد المراسلين : « ان اميليا ايرهارت تقوم بكل هذه الأعمال

لا لتضرب رقماً قياسياً فى الطـيران ، أو لتحظى باعجاب الجماهير ، أو لتفوز بشىء من المال ، أو حتى خدمة للعلم ، أو لترك ذكرى لأحفادها ، فهى ما كانت لتقوم بهذه الأعمال لسبب من هذه الأسباب ، ولكنها قامت بهذه الأعمال المجيدة لأنها اميليا ايرهارت الفريدة ، انها من ذلك الطراز النادر من الفتيات ، والطراز النادر من الطيارين ، ولأنها عميقة الايمـان بطموحها ، شديدة العزم لتحقيق أمانيها ... »

وانهال عليها الثناء من كل جانب ولكنها لم تدع هذا الثناء يدير رأسها وجمعت فى ملف عليه بطاقة تحمل كلمة « قمرة الطائرة » كل ما وصلها من رسائل وأشعار وأغان ، وبرقيات ، وقد جاء فى رسالة من عمدة احدى المدن التى كانت توشك على زيارتها « أرحب بك ثلاث مرات — يا ابنة السماء العظيمة ويا درة فى جبين جميع نساء الأرض » .

ان اختلاف الرأى ووجهات النظر أمر طبيعى فى عالم يحفل بأخلاط الناس . وهذا صحيح أيضا بالنسبة لما فعلته اميليا ايرهارت ، ففى كل مرة كانت تقوم بمغامرة طيران مشهورة ومرموقة كانت تنهال عليها عبـارات المديح والتشجيع جنباً الى جنب مع عبارات الذم والتقريع ، فكان البعض يقولون انها متهورة طائشة تجرى وراء الشهرة وليست محاولاتها الجريئة فى الطيران أكثر من حركات بهلوانية فى عصر أصبح طابعه السرعة المجنونة ، فى حين أن الطيران علم لا مجال فيه لشجاعة لا معنى لها ولا دلالة .

أما اميليا فكانت ترد على مثل هؤلاء النقاد بمثل هذه العبارة « ان تطلع الانسان من أعماقه لأن يؤدى عملا حبا فى هذا العمل بالذات ليس فيه ما يدعوه لأن يقدم تبريراً أو تفسيراً ... أو حتى اعتذاراً عما يفعله فهذا الاحساس بالذات كان وسيظل دائمـاً الحافز الحقيقى وراء كل ما حققته الانسانية من منجزات عظيمة » .

واستدعيت اميليا فى عام ١٩٣٥ للانضمام الى هيئة التدريس بجامعة

بوردو بانديانا كمعلمة للطيران . وفى حفل اعلان تعيينها فى هذا المنصب وقف ادوارد س. اليوت مدير الجامعة يقول « ان الآنسة ايرهارت تعبر أكثر من أى امرأة أخرى من بنات هذا الجيل عما يمكن أن نسميه بروح عصر الارتياد الجديد » .

وفى الجامعة كانت اميليا تحدث الطالبات عن طائرات المستقبل فتقول لهن « اذا كنتن راغبات فى القيام بعمل ما فلتقمن به دون تردد ، واذا وجدتن ما هو أفضل منه لتحولن الى هذا الأفضل . واذا أحست الواحدة بالرغبة فى عمل شىء لم تسبقها اليه امرأة غيرها فلا ينبغى أن تتردد أو تخشى شيئا ، ولتتقدم الى العمل مهما كان الأمر ، فقد تتحول هذه الرغبة الملحة الى متعة ، وأنا أعتبر المتعة شيئا لا بد منه فى أى عمل ، بل اعتبرها عنصراً هاما من عناصر العمل ذاته » .

وكم كان سرور اميليا بالغاً عندما اشترى لها مركز أبحاث الجامعة طائرة من طراز اللوكهيد اليكترا ذات المحركين لاستخدامها « كمعمل طائر » وكانت سرعة هذه الطائرة تبلغ فى المتوسط حوالى ١٨٠ ميلا فى الساعة ، كما كانت تتسع لكمية كبيرة من الوقود تكفى للطيران أكثر من ٤٠٠٠ ميل . ولم تكن غرفة القيادة تزيد عن قمرة زجاجية تبلغ مساحتها أربع أقدام ونصف قدم ، ومع ذلك كانت لوحة القيادة مرصعة بأكثر من مائة زر ومقياس من أحدث ما وصل اليه العلم من وسائل ومعدات فى عالم الطيران ، ومع كل هذه الأزرار والمقاييس بدت اللوحة فى نظر « ا. ا. » مجرد لعبة لطيفة خفيفة .

فى بداية عام ١٩٣٧ عقدت السيدة ايرهارت مؤتمراً صحفياً ، وتجمع المصورون ومراسلو الصحف فى غرفتها بفندق نيويورك ، ووقفت « ا. ا. » أمامهم طويلة ونحيلة ترتدى زياً صوفياً أزرق اللون وايشارباً فاتحا واستقرت يدها الرقيقة فوق نموذج للكرة الأرضية .

واستهلت حديثها قائلة « لقد دعوتكم لأعلن لكم اننى قررت الطيران

حول العالم ، وسأطير بالقرب من خط الاستواء كلما كان ذلك ممكناً »
ثم مرت بأصبعها على محيط نموذج الكرة الأرضية ، فى مسار يبلغ طوله
حوالى ٢٧ ألف ميل .

وقاطعها صوت من بين الحاضرين « وهل ستطيرين وحدك ؟ » .

فأشارت اميليا الى الرجل الذى سيشاركها رحلتها التاريخيـــة وهى
تقول « لا أعتقد أن أى قائد طائرة ــ مهما كان بارعاً ــ يستطيع أن يقوم
فى مثل هذه الرحلة بدور الملاح والقائد معا فى وقت واحد » .

وسألها صحفى آخر « وكم ستستغرق الرحلة ؟ » .

فأجابته « لا أدرى تماماً ، فهذه رحلة جديدة لم يجربها أحد من قبل
ولسوف أطير عندما يحلو لى وعندما تتهيأ الظروف الملائمة ، فلست فى
سباق مع انسان أو جماد . ولكل عملية طيران أهميتها البالغة ونتائجها
الخاصة ، ومن يدرى فقد نعود من رحلتنا هذه بمعلومات علمية قيمة » .

ولو كان أحد الحاضرين فى هذا المؤتمر قد سألها عن أسباب قيامها بهذه
الرحلة الخطرة لكان من المحتمل أن تجيبه قائلة « اننى أريد ذلك وحسب ،
فالطيران متعة وعلى المرء أن يجرب حظه ! » .

ولم تحزم « ا. ا. » أمتعتها وترحل على الفور ، فقد أمضت شهوراً طويلة
تعد لهذه الرحلة قبل أن تعلن عنها فى مؤتمرها الصحفى . فقد كان عليها
أن تجمع خرائط الطيران ، وأن تبين عليها طريقها المنتظر ، كما كان يتعين
عليها أن تعرف المسافات التى ستقطعها والمواقع التى تجد فيها مطارات ،
والأماكن التى لا تستطيع أن تهبط فيها ــ بأية حال من الأحوال ــ هبوطا
اضطرارياً ، وأنواع الرياح التى تسود كل منطقة من مناطق العالم ، والجو
الذى ينتظرها ، كما كان يتعين عليها أن ترسل مقدماً الوقود والزيت اللازم
لمواصلة رحلتها الى الأماكن التى ستتوقف فيها لتتزود بالوقود ، فضلا
عن ارسال قطع الغيار فلم يكن من المتوقع أن تجد قطع الغيار اللازمة
للطائرات الأمريكية فى مدن مثل داكار أو كلكوتا أو سنغافورة .

كان على طائرة الآنسة ايرهارت أن تبدأ رحلتها حول العالم بالاتجاه غرباً . وفى المرحلة الأولى من الرحلة انفجر أحد اطاراتها وهى فى سبيلها الى الاقلاع من مطار هونولولو بهاواى ، وانحرفت الطائرة وانكسرت عجلة القيادة كما تحطمت المروحتان .

وأعيدت « اليكترا » الى المصانع بكاليفورنيا لاصلاحها ، وتوجهت « ا. ا. » الى بيتها ، وظلت تنتظر ثلاثة شهور ، تغيرت خلالها الفصول الطبيعية فكان عليها أن تعيد دراسة الأحوال الجوية ، من أين تهب العواصف الترابية ورياح الخماسين ؟ وماذا عن الضباب والأمطار الاستوائية ؟ . وفى هذه المرة رأت أنه من الأفضل أن تبدأ رحلتها بالاتجاه نحو الشرق .

وقادت اميليا طائرتها من كاليفورنيا الى ميامى ثم فلوريدا فى رحلة تجريبية حتى تأكد لديها أن جميع أجزاء الطائرة تعمل على ما يرام .

وفى فجر أول يونيو عام ١٩٣٧ وقف چورج بتنام فى مطار ميامى يلوح بيديه مودعاً زوجته وملاح طائرتها فريدريك ج . نونان وهما ينطلقان نحو كاليفورنيا فى أطول مرحلة طيران فى رحلتهما .

كان فريد نونان قد عبر الباسفيكى ثمانى عشرة مرة فى طائرات تجارية تعمل على خطوط شركة بان أمريكان . وكان ملاحاً مدرباً أحسن التدريب على ادارة الأجهزة اللاسلكية ، كما كان من أبرع قادة طائرات النقل. وكانت عروسه السيدة بياتريس نونان التى لم يمض على زواجه بها أكثر من شهر تنتظر عودته فى أوكلاند بكاليفورنيا .

وودعته عروسه قبل قيام الطائرة قائلة « رافقتك السلامة يا فريد » .

فأجابها فريد « سأراك فى أوكلاند ــ فسنحاول الانتهاء من رحلتنا فى الرابع من شهر يوليو » .

وراح چورج بيتنام يتحسس مظروفا فى جيبه وهو يتابع بنظراته الطائرة اليكترا وهى تختفى فى السماء . وكان ذلك المظروف المغلق يضم رسالة كان

يرجو ألا يضطر يوماً الى فضها . فعلى المظروف كتبت « ا. ا. » بخط يدها تقول « لا تقرأ هذه الرسالة الا فى حالة عدم عودتى » .

وجهت « ا. ا. » طائرتها نحو الجنوب الشرقى فى طريقها الى بورتوريكو ، ثم أدارت جهاز الراديو فى طائرتها وسمعت المذيع يذيع من اذاعة ميامى أنباء رحلتها بأنفاس مبهورة . فاستدارت نحو نونان وضحكت فى سعادة وقالت « حينما كنت طفلة صغيرة فى كانزاس كانت مغامرات السفر والترحال تستحوذ على خيالى ، فكنت أجلس مع شقيقتى فى عربة قديمة مهجورة فى المخزن ، وتتخيل أننا فى مختلف الرحلات والأسفار والمغامرات التى لا تخطر على بال ، وهأنذا ما زلت حتى يومنا هذا مشدودة الى الأسفار ... ولكننى لم أعد أحلم ... فها نحن راحلون حقيقة وفعلا » .

وأخرجت دفتر مذكراتها وكتبت فيه أول تسجيلاتها عن الرحلة فقد كانت تزمع وضع كتاب عن الرحلة بعد الانتهاء منها فراحت ، والطائرة تقطع المسافة التى كانت تفصلها عن مصيرها ، تكتب مذكراتها وتبعث بها الى زوجها من كل مكان تهبط فيه وتيسر لها ذلك .

***

واليكم بعض ما كتبته :

(جزر باهاما) امتدت جزيرة أندروز أمام أعيننا كبساط أخضر زاهى الألوان تطرزه النباتات البحرية المتعددة الألوان التى كانت تمتد فوق الجزيرة وكأنها أصابع مبسوطة ...

وقد شاهدنا حطاماً طافياً فوق الماء ، ودليلا صامتاً على مأساة قديمة .

كان شاطىء فنزويلا الذى بدا لنا من بعيد مشوباً بالغموض هو أول ما وقعت عليه عينى من أرض أمريكا الجنوبية . وعندما ازددنا قرباً رأيت الجبال تغطيها الغابات الكثيفة ، كما رأيت ودياناً عريضة تمتد بين الجبال ، وسهولا فسيحة وغابات كثيفة ، ولم أكن فى حياتى كلها قد رأيت غابة .

ولا شك فى أن مثل هذه الغابة هى أبغض وأسوأ مكان يمكن أن يهبط فيه الطيار هبوطاً اضطرارياً ...

كانت السحب المثقلة بالمطر تكسو كاريبيتو (فينزويلا) عندما أقلعنا بالطائرة فى صباح ٣ يونيو . ومع المطر المنهمر ظللنا نلعب فترة من الوقت لعبة « الاستغماية » حتى رأيت أنه من الخير لنا أن نعلو فوق هذا المشهد ، فنخترق السحب لنصبح فى جو أكثر صحواً واعتدالا ، وارتفعنا بالطائرة حتى ٨٠٠٠ قدم فأصبحنا فوق كل القمم ، وكانت أعلى القمم تبدو لنا وكأنها تلبس غطاء من الصوف الأبيض ، وفى مثل هذا اليوم العبوس الممطر يرى الطيار المطر وهو يتساقط مائلا نحو الأرض ، ولكن كم ممن يقيمون فوق الأرض يستطيع أن يتصور أنه فوق هذا العالم الرمادى اللون المدلهم المندى بمياه المطر يمكن أن تكون أشعة الشمس متألقة ، ودافئة ، الى هذا الحد الغريب ! .

(ناتال — البرازيل) عندما كنت أتناول وجبة الغداء كدت أنسى أننى فى أمريكا اللاتينية ، فقد كان الطعام المكون من عصيدة الذرة وفطائر التفاح قريبة الطعم والمذاق لما نصنعه من طعام . واذا استمر بنا الأمر على هذا الحال ، فسنضطر الى انقاص وزننا ، لأن كل ستة أرطال زيادة فى وزننا ستتطلب جالوناً على الأقل زيادة فى استهلاك الوقود .

اننى أشاهد من خلال النافذة طفلين يلعبان فى الرمال وأنا أكتب اليك هذه الرسالة ، مما يشيع فى نفس السعادة والأمان .

فى مساء ٧ يونيو هبطنا فى افريقيا القارة الثالثة فى رحلتنا ، وما يزال علينا أن نجتاز قارتى آسيا واستراليا قبل أن نصل الى نهاية الرحلة .

(داكار) كانت افريقيا بالنسبة لى مهرجانا من الألوان المتناقضة ، فقد بدت لى كالحلة اللامعة التى تتناقض تماماً مع خلفية المنظر المكون من سهول حمراء داكنة ، وتلال جرداء ، ونباتات لفحتها الشمس والحرارة وأكواخ شهباء داكنة اللون .

اذا سارت الأمور على ما يرام ، فسنبدأ غداً طيراننا الطويل مخترقين القارة الافريقية ، وقد حذرونى من عواصف الجنوب ، كما حذرونى من العواصف الرملية التى تهب من الشمال ، وكان على أن أسير فوق خط مستقيم متجنبة عواصف الجنوب ، ورياح الشمال .

لقد كانت رحلتنا — حتى الآن — فى طرق معروفة ومألوفة ، ولكن بعد ذلك سوف نطير فوق منـــاطق طار فوقها قبلنا كثيرون ولكن بغير جداول أو مواعيد منظمة .

ان معظم أرض افريقيا الوسطى التى نطير الآن فوقها تشبه الى حد بعيد جنوب الولايات المتحدة . وقد بلغ الشبه حداً كبيراً كان يحملنى الى قرص جسمى من وقت لآخر لكى أتذكر أن آلاف الأميال تفصلنى عن أريزونا ونيوميكسيكو . ان افريقيا الوسطى بلاد حارة تغطيها مساحات شاسعة من الصحارى العارية كما تتخللها مناطق جبلية وعرة ، ولكن كل ما فيها من صحراء جرداء وصخور صماء وجبال شاهقة يبدو مهيباً جميلا رائعاً .

ومن الأعالى رأينا البحر الأحمر ، ولم يكن لونه أحمر بل أزرق (أما النيلين الأزرق والأبيض فقد كان لونهما أخضر) ومن وراء البحر الأحمر رأينا أرض السراب تتألق فى ضوء الشمس الباهر ، ولم تكن تلك الأرض المتألقة الا شبه الجزيرة العربية .

ما من مرء يستطيع أن يتصـــور مكاناً مقفراً أكثر من ذلك الشاطىء (شاطىء بحر العرب) حيث تنتصب جبال لم تلمس أقدامها مياه البحر ، وتتوالى فيها كثبان رملية واحداً اثر آخر حتى تصل الى حافة الماء . وبدت بعض المناطق كأن الأرض قد قلبت ظهـــراً على عقب ، وتحولت الى قمم متلاطمة ، وجبال وهمية ووديان عطشى عارية لا يكسوها زرع ولا ضرع وكأنها قد سلبت من كل معالم الحياة ...

ولم يكن الهبوط الاضطرارى بالشىء المرغوب فى أى بقعة من بقاع

جنوب الجزيرة العربية ، ومع ذلك أخذنا معنا كمية كبيرة من المياه والأطعمة المركزة كما أخذنا معنا بوصلة أرضية صغيرة وأحذية ثقيلة ، وكان القدر رحيماً بنا فلم نرغم على الهبوط ، وحمدنا الله .

(كلكوتا — الهند) رأينا ونحن فى السيارة فى طريقنا الى بيت مضيفنا العشرات من عربات الريكشا . وكانت الشوارع العريضة الواسعة تزدحم بمختلف وسائل النقل والمواصلات وبعشرات الألوف من الناس التى ترتدى زياً أبيض موحداً ، ودكاكين صغيرة تعرض البضائع بجوار العمارات الشاهقة التى تضم المكاتب والدواوين وتسير الثيران والأبقار فى الطرق والشوارع فى حرية تامة ، وكانت شيرلى تمبل تعرض فيلمها (كابتان جانيوارى) .

(سنغافورة) ترقد المدينة الشاسعة فوق جزيرة ، وقد احتشد ميناؤها الشهير على سعته والى مرمى البصر بمئات القوارب الشراعية والسفن من جميع الأنواع والأحجام وقد جاءت اليه من جميع أنحاء العالم .

(لى — غنيا الجديدة) ان طائرتى اليكترا تربض الآن على شواطىء الباسيفيك ، وفى مكان ما وراء الأفق تنتصب كاليفورنيا شامخة ، لقد قطعنا حتى الآن ٢٢ ألف ميل ولم يبق أمامنا غير سبعة آلاف ميل وتنتهى الرحلة .

* * *

ومن منطقة « لى » بدأت اميليا ابرهارت وفريد نونان أطول مرحلة من الطيران المتواصل فوق المحيط ليقطعا ما يرقب من ٢٥٥٦ ميلا فى سماء لم تخترقها طائرة من قبل . وقد كانت بغيتهما هى جزيرة هولندا الضئيلة وهى عبارة عن شريط جبلى طوله ثلاثة أميال وعرضه نصف ميل يشب فوق سطح البحر ببضع أقدام ، وبعدها تأتى قطعة أرض أخرى هى جزيرة باكر التى تقع على بعد ٤٠ ميلا شمال جزيرة هولندا ، وفيما عدا هذه المساحات من الرمال الطافية فوق سطح المحيط لم يكن يوجد أى شىء آخر ، وكان

الاتجاه والهبوط نحو جزيرة هولنــدا التى تقع وسط المحيط كالاتجاه لالتقاط منــديل يقع فى قلب ولاية تكساس . وقد كتبت « ا. ا. » فى سجل « لقد مررنا بعرض العالم كله ، ولم يبق غير هذا المحيط الشاسع ولكم يسعدنى أن أجتاز تلك المخاطرة وأتركها خلفى فى سلام » ! .

ووقفت سفينة حرس الشواطىء الأمريكية أتاسكا على أهبة الاستعداد لارشاد « ا. ا. » فى الوصول الى جزيرة هولندا . وكانت مهمة السفينة هى مداومة الاتصال بايرهارت عن طريق اللاسلكى واعطائها أولا بأول التقارير عن حالة الجو ، وتوجيه الاشارات اللاسلكية اليها .

ولم يكن جهاز اللاسلكى فى طائرة « ا. ا. » قويا ، وكانت اميليا تطير ساعات طويلة قبل أن تدخل فى نطاق المنطقة التى يقوم جهاز ارسال ايتاسكا بتغطيتها ، ولم يكن تحتها معالم تمكن نونان من التأكد من سلامة الاتجاه وصحته ، لم يكن أمامهما غير النجوم مرشداً وموجهاً ، ومع ذلك كان على « ا. ا. » أن تقود اليكترا بمنتهى الدقة ، فلو أخطأت بوصلة نونان درجــة واحدة لانحرفت الطائرة عن طريقها المرسوم ميلا واحداً فى كل ٦٠ ميلا . وعند منطقة «لى» لم يعد جهاز ارسال اليكترا الذى لا تتجاوز قوته الخمسين وات يعمل بانتظام ، وواجه نونان صعوبة بالغة فى اصلاح الكرونوميتر .

وفى العاشرة من صباح ٢ يوليو عام ١٩٣٧ — أول يوليــو بتوقيت هولندا — أقلعت اميليا ايرهارت من « لى » . وقد ظنت وهى تطير فى ذلك اليوم أنها تطير فى الأمس ، فقد كان وقوع جزيرة هولندا على خط طول ١٨٠° هو السبب فى هذا الفرق فى التاريخ ، وقد طارت اميليا وهى لاتدرى أنها تسير بخطى حثيثة نحو عالم الأبدية .

كانت السفينة ايتاسكا ترسل تقاريرها عن الجو وتبعث اشاراتها الى « ا. ا. » حتى قبل أن تدخل طائرتها فى نطاق جهاز ارسال السفينة . وتجمع البحارة الخمسة بغرفة اللاسلكى الصغيرة الحجم يبذلون جهداً كبيراً لعلهم يلتقطون صوت « ا. ا. » وهى ترد على اشاراتهم . وكان الجو مشحوناً

بالكهرباء الى حد جعل الاتصال اللاسلكى صعباً وكانت الرياح تهب مواجهة طائرة « ا. ا. » فتحملها على الطيران البطىء وتضاعف من استهلاك الوقود. وفى حوالى الساعة الثانية والخامسة والأربعين صباحاً سمعوا صوت اميليا لأول مرة ، وكان كل ما استطاعوا التقاطه من كلماتها هو « السماء معتمة وملبدة بالغيوم .. » .

وظل رجال السفينة ايتاسكا يحاولون طوال الليل أن يعيدوا الاتصال باميليا ، وظلوا يرددون عن طريق جهازهم اللاسلكى أنهم لا يسمعون شيئاً منها ، وطلبوا منها أن تحاول الاتصال بهم على موجة أخرى وأن تستخدم اشارات جهازها الخاص ، ولكنهم لم يتلقوا منها رداً ، كما لم يصلهم منها ما يحدد موقعاً من الأماكن التى ظلوا يرددون أسماءها . ولم يكن هـذا الصمت من جانبها يعنى غير شىء واحد فقط ، هو أن عطباً قد أصاب الأجهزة اللاسلكية بالطائرة .

وجاء الصباح ، وكان يوماً صافياً صحواً ، وأنزل الكوماندور و . ك . تومسون ربان السفينة ايتاسكا مجموعة من الرجال على شاطىء جزيرة هولندا ليفزعوا آلاف طيور البحر المقيمة فى الجزيرة ، لكى تتمكن اميليا من الهبوط بطائرتها فى الجزيرة بسلام . وقد أمر الكوماندور تومسون مهندسى السفينة باطلاق أعمدة كثيفة من الدخان الأسود من مداخن السفينة على سبيل الارشاد للطائرة .

وفى الساعة السابعة والثانية والأربعين صباحاً ترامى اليهم صوت « ا. ا. » من خلال جهاز الاستقبال : « نحن نطير فوقكم ولكننا لا نراكم . الوقود يكاد ينفد .. لم تتمكن من الاتصال بكم بالراديو .. نحن نطير على ارتفاع ١٠٠٠ قدم » .

وفى الساعة السابعة والسابعة والخمسين قالت : « نحن نحوم ولكننا لا نستطيع رؤية الجزيرة ، كما أننا لا نستطيع أن نلتقط اشاراتكم » .

فأرسلت الايتاسكا سلسلة طويلة من الاشارات .

وفى الساعة الثامنة والدقيقة الثالثة ترامى صوت ايرهارت .

ايرهارت تنادى ايتاسكا « التقطنا اشاراتكم .. لا نستطيع أن نحدد موقعنا » .

وردت الايتاسكا فى الحال ولكنها لم تتلق رداً كذلك . وفى الساعة الثامنة والخامسة والأربعين سمعوا صوت اميليا لآخر مرة ، وكانت تتحدث بسرعة : « نحن نسير بحذاء خط ١٣٧ — ٣٣٧ .. سأكرر الرسالة .. نحن نطير الآن جنوباً وشمالا .. » .

ثم خفت صوتها وراح تومسون يتصفح من فوق ظهر السفينة وجه السماء ، وراح يتساءل : هل أعمى ضوء الشمس اميليا عن رؤية أعمدة الدخان ؟ وكان قد قدر أن اميليا ايرهارت قد تجاوزت الجزيرة الصغيرة وأصبحت فى ذلك الوقت تطير فوق المحيط الشاسع بغير وقود . وفى التاسعة صباحاً أبرق تومسون الى واشنطن يقول : « لم تعد ايرهارت على اتصال بنا . نحن الآن عند خط ٩٠٠ — أعتقد أنها سقطت فى المحيط — أقوم الآن بالبحث عنها فى جميع الأماكن المحتمل سقوطها فيها ، وسأواصل البحث عنها .. » .

وفى الحال أصدر الأدميرال وليم د. ليهى رئيس العمليات البحرية الأمريكية أوامره الى جميع السفن التابعة له بتقديم كل معونة ممكنة . فقامت حملة ضخمة للانقاذ ، وتوجهت الطائرات والسفن الى مكان البحث وبأقصى ما تملك من سرعة ، وتجمعت فى منطقة البحث بارجة ، وكاسحة ألغام ، وحاملة طائرات ، وأربع مدمرات ، وست وستون طائرة . وراحت الطائرات المنقضة تمسح كل شبر فى كل جزيرة فى دائرة قطرها مئات الأميال . ومسحت السفن أكثر من ١٠٠,٠٠٠ ميل مربع من المحيط ولكنها كانت خالية من كل شىء الا من حطام ناقلة بضائع ، وفى السابع من يوليو انضمت الى حملة الانقاذ سفينتان يابانيتان . وقد اشترك فى حملة البحث عن اميليا ايرهارت وفريد نونان ٤٠٠٠ رجل ، وتكلفت العملية أكثر من ربع مليون دولار فى

اليوم ، فكانت بذلك أكبر وأضخم عملية بحث تمت فى تاريخ الطيران حتى يومنا هذا .

وفى أوكلاند بكاليفورنيا ظل چورچ بتنام ساهراً لا يغمض له جفن ليلا ونهاراً ، رافضاً باصرار وعناد أن يفقد الأمل فى عودة اميليا وظل يردد طوال الوقت : « ان أجنحة الطائرة كبيرة جداً وخزانات الوقود الخاوية ستكون بمثابة عوامات ترفع الطائرة فوق سطح الماء . كما أن بالطائرة قارب انقاذ يتسع لاثنين وهو مصنوع من المطاط الجيد ، وهناك أحزمة نجاة ، وصواريخ ، وبالون اشارات أصفر اللون كبير الحجم يمكن أن يظل طائراً فوق الطائرة أو فوق قارب النجاة ، فلو كانت الطائرة قد سقطت بهما لظلا طافيين فوق الماء الى ما لا نهاية ! » .

وفى ٧ يوليو سلم رجل البريد السيدة بياتريس نونان رسالة مكتوبة بخط زوجها وتحمل خاتم البريد . وقد جاء فيها : « عشرين يونيو — ان اميليا فتاة رائعة وعظيمة وأهل للقيام بهذه الرحلة الخطرة ، وهى الطيارة الوحيدة التى لا أتردد فى القيام معها بمثل هذه الرحلة الشاقة ، فهى الى جانب أنها رفيق سفر ممتع ، تستطيع أن تواجه مصاعب الرحلة بشجاعة يحسدها عليها الرجال ، كما أنها تستطيع أن تقوم بكل ما يقوم به الرجال من أعمال » .

أجمع ملايين الناس على أنه لو كانت الشجاعة وحدها قادرة على دفع القدر المحتوم لعادت اميليا ايرهارت سالمة . ويوماً بعد يوم كانت رسائل هواة اللاسلكى تتوالى ، بعضها يزعم أنه تلقى اشارات من «ا. ا.» ، وبعضها الآخر يدعى أنه سمع صوتها ، وجاءت تقارير من هونولولو ، ولوس أنجلوس ، وسان فرانسسكو ، وستيل ، وسنسناتى ، عن مشاهدة صواريخ ثم مشاهدة حطام طائرة . وزعمت سيدة ذات قوى روحية أنها تستطيع أن تحدد بدقة بالغة المكان الذى تطفو فيه الطائرة . غير أن أجهزة الاستقبال القوية المركبة فوق سفن الأسطول الأمريكى التى كانت توالى

القيام بعملية البحث والتفتيش لم تتلق أية اشارة لاسلكية واحدة وكانت هذه السفن تفحص بعناية ودقة كل اشارة ، وقد تبينت أنها اشارات خادعة .

وبعد أسبوع من البحث المضنى أصبحت فرصة العثور على اميليـا ايرهارت ونونان لا تتجاوز الواحد فى المليون ، وفى ١٩ يوليو توقف البحث عنهما نهائياً .

وفض چورج بتنام رسالة زوجته وأعلن محتوياتها على العـالم كله : « لقد قررت القيام بهذه الرحلة لمجرد الرغبة فى ذلك ، فمن حق المرأة أيضاً أن تجرب القيام بما تحلم به من عمل ، كما يفعل الرجل تماماً ، فاذا ما تعرضت للفشل مرة كان هذا الفشل حافزاً لغيرى على مواصلة السـير فى هذا الطريق » .

مرجريت ميد

Margaret Mead

هذا العالم ميدانى

١

فى ساعة مبكرة من صباح يوم من أيام شهر أكتوبر عام ١٩٢٥ ، رست السفينة سونوما فى ميناء باجو ــ باجو ، ولم يبرح السفينة فى ذلك الميناء غير مسافر واحد ... فتاة نحيلة ، طويلة القــوام ، ذات شعر بنى تدعى مرجريت ميد .

ولم يكن طول مرجريت يتجاوز الخمس أقدام ، فكانت بشعرها القصير وعينيها الواسعتين تبدو أصغر سناً من أن تترك وحيدة فى مثل هذه الجزيرة الاستوائية الصغيرة « ساموا » التى تقع فى بحار الجنوب على بعد ثلاث عشرة درجة جنــوب خط الاستواء ، ويفصلها عن بنســلفانيا أكثر من ٧٥٠٠ ميــل .

ولكن مرجريت كانت فى ذلك الحين قد بلغت الثالثــة والعشرين من عمرها ، وقد تخرجت من جامعة كولومبيا بمدينة نيويورك ، وتحمل درجة الدكتوراة فى علم دراسة الأجناس . وكانت فى ذلك الوقت تقــوم بأول رحلة لها لتجرى دراسة ميدانية لشعب معين بهدف معرفة طرق حياته على الطبيعة .

وكان هدفها الأول هو دراسة حياة الفتيات الساموايات وهن يجتزن سن المراهقة فى مجتمع بدائى ، وجاءت لترى « ما اذا كانت هذه الفتيات يعانين سنوات من المتاعب والدموع مثل الفتيات الأمريكيات خلال فترة التحول من مرحلة الطفولة المراهقة الى مرحلة الأنوثة الناضجة » .

ولم تكن الآنسة ميد قبل ذلك اليوم قد ألفت حياة الفنادق ، ولكنها نزلت فى الفندق الوحيد الموجود فى باجو ــ باجو وسرعان ما تبينت بغير عناء أنها النزيلة الوحيدة ، ولم يكن هذا الفندق غير مبنى قديم متداع يديره رجل واحد من أهل الجزيرة شديد الحياء والخجل ، ويتولى طهى الطعام فيه طاه حزين العينين ذابل القسمات يسمى ميسفورشن (النحس) .

وأخرجت مرجريت حاجياتها ــ وقد انتابها شعور بالخوف ــ ولم تكن تحمل أكثر من آلة تصوير وآلة كاتبة ، ومذكرات ، وخزانة حديدية ، ومجموعة ملابس ووسادة صغيرة تصلح لطفل مكسوة بقماش أزرق اللون . ولم تكن مرجريت تتوقع أن تحس بالوحدة والوحشة لأنها ستقضى الأيام والليالى غارقة فى العمل حتى أذنيها ... فقد كان عليها أن تتعلم أولا اللغة الساموانية الجميلة الرقيقة ذات الجرس الموسيقى ، ثم تبحث بعد ذلك عمن يرعاها من زعماء شعب « السموا » لتعيش فى بيته ، فتستطيع عن طريقه الاختلاط والمشاركة فى الحياة كأى فتاة ساموانية فيمكنها أن تحس بقلبها وتدرك بعقلها كيف تتحول الفتاة السموانية الصغيرة الى امرأة ناضجة ..

ولكن كيف تستطيع مرجريت أن تحقق ذلك ؟ ! . بل كيف يستطيع أى انسان فى هذا الوجود أن يستكشف الطريق الذى يسلكه فى الحياة ؟ فالطفل وهو ينمو يقف على مفارق عشرات الطرق ، ولكن الطرق المفتوحة أمامه تتوقف فى واقع الأمر على المكان والزمان الذى يولد فيه ، كما أن المستقبل الذى يختاره لنفسه انما يعتمد فى واقع الأمر وحقيقته على نوع الأسرة والبيئة التى يعيش فيها وبينها ، كما يعتمد الى حد كبير على الأحلام والأمانى التى تراوده وهو صغير ! ! .

فلو كانت مرجريت ميد مثلا قد ولدت فى بداية القرن التاسع عشر مثل سوزان ب . أتتونى ، أو ولدت زنجية مثل مارى ماكلويد بتيون ، لكانت الطرق المفتوحة أمامها أقصر طولا وأشد ضيقاً . ولكن مرجريت ولدت فى

١٦ ديسمبر عام ١٩٠١ فهى ابنة القرن العشرين كما أنها نشـأت فى بيت تسوده الثقافة وبين أسرة حباها الله بالكثير من المواهب .

لقد كانت أمها اميلى فوج خريجة جامعة شيكاغو ، وقد شاركت فترة من الوقت فى نشاط « بيت هل » تحت رعاية جين آدامز ، وكان ذلك قبل أن تتزوج من ادوارد شـيروود ميـد ، وبعـد الزواج أقام الزوجان الشـابان فى فيلادلفيا ليكونا قريبين من جامعـة بنسـلفانيا حيث كان البروفيسور ميد أستاذ مادة الاقتصاد .

ولم تتخل اميلى ميد الرشيقة عن اهتماماتها الثقافية لأنها تزوجت مثلا أو أصبحت أماً لأطفال بل ظلت تعمل وتدرس وتربى أطفالها تاركة لبناتها وأولادها الحق فى اختيار وممارسة اهتماماتهم الخاصة . وقد كان للأسرة أصدقاء كثيرون ومتنوعون ، فلم تنقطع صلة الأسرة بما يدور حولهـا من شئون الحياة . فكان من الطبيعى أن ينمو لمرجريت ــ منذ خطواتها الأولى فى الحياة ــ اهتمام طبيعى بالناس ، وتعودت أن تهتم بهم اهتمـاماً بالغاً حيوياً كما تعودت أن تتنفس أو تأكل أو تنام .

وفى ذلك البيت العامر بالحياة كانت أم البروفيسور ميد تعيش أيضاً بعد أن مات أبوه ، وكانت الجدة ميد تعمل مدرسة ولها فى ذلك آراء ونظريات تربوية غير عادية ، فراحت تعلم أطفـال الأسرة فى البيت ، وكان كل من مرجريت وشقيقها الأصغر ريتشارد متقاربين فى السن فكونا معاً صفاً دراسياً واحداً . وقد اتبعت الجدة فى تعليمهما أساليب مبتكرة كفيلة بأن تصيب أى مدرس عادى بالذهول والدهشة . فقد درس الطفلان علم النبات قبل أن يتعلما هجاء الحروف ، وتعلما حل مسائل الجبر قبل أن تكتمل لديهما الفكرة العامة عن علم الحساب .

وحينما بلغت مرجريت سن السابعة كانت شقيقتها اليزابيث لم تتجاوز الثلاث سنوات ، وأختهما بريسكيلا ما زالت تتعلم النطق حديثاً ، فكلفت الجدة ميد الطفلة مرجريت بأول مهمة علمية ، فطلبت منها أن تتابع شقيقتيها

وتنصت الى كل ما ينطقان به بعناية واهتمام أثناء نمو حصيلتهما اللغوية ، ثم تحدد بعد ذلك ــ وكلما كان ذلك ممكنــاً ــ الأغنية أو القصــة أو الأهزوجة التى أمدت الصغار بالكلمات الجديدة .

فلو قالت الجدة ميد لاليزابيث مثلا : « أنت تبدين خشنة اليوم » فترد عليها اليزابيث : « لأننى ذلك الرجل الخشن » لكان على مرجريت أن تعرف فى الحال أن شقيقتها قد تعــلمت كلمة (خشــن) من قصــيدة لجيمس هوايتكومب ريلى ، كان يقول فيها :

عند أبى يعمــل رجل خشن
ولكنه أطيب رجل فى العالم

ولما كانت مرجريت تنتقى العلم فى البيت فانها كانت تغرم بزيارة صديقاتها فى مدارسهم « النظامية » ، وفى سن العاشرة توجهت ذات مرة مع صديقة لها فى مدرسة هيسدال بالينوى ، وطلب المدرس من تلميذات الصف الرابع أن يكتبن موضوعاً عن كتابهن المفضل فاشتركت مرجريت مع التلميذات وكتبت موضوعاً عن كتابها المفضل فى ذلك الوقت ، وكان « حصن بلير » لفلورا ل . شو . وكان الكتاب يتضمن قصة مثيرة عن خمسة أطفال يعيشون فى حصن بايرلندا ويخوضــون مغــامرات عجيبة . وقد سجلت مرجريت مقالتها فى سلاسة ويسر حتى النهاية .

وبعد عدة أيام قال المدرس لأم صديقتها : « لقد كتبت مرجريت أحسن مقال قرأته لطفلة لا تتجاوز العاشرة من العمر » .

وانتقلت شهادة الثناء بسرعة الى السيدة ميد التى حملتها بدورها الى مرجريت نفسها . فقررت بشغف أن تعيد قراءة الكتاب ثانية وعندما فتحته برزت أمامها فقرة مقتبسة من كاتب انجليزى مشهور هو جون راسكين ، وكم كانت دهشتها بالغة عندما تبينت أن ما كتبته فى مقالها لم يكن غير نثر راسكين وقد كتبته دون أن تعى هذه الحقيقة .

وقد أحبت مرجريت قراءة الشعر وكتابته ، وكانت احدى قصائد الشاعر

روبرت لويس ستيفنسون قد انطبعت فى ذهنها فلم تعد تبرح خيالها وتجرى القصيدة على النحو التالى :

يمضى النهـــر بلونه البـنى الداكـــن
والرمــل من حوله أصــفر كالذهــب
والنهــر يجـرى متدفقــاً والى الأبد
والشجر البــاسق منتصب على جانبيه

* * *

وعلى صفحة النهر تطفو الأوراق الخضراء
كأنهـا قــلاع مشـيدة فــوق الزبد
ومراكب من صنع يدى تتهادى فوق الماء
ولا أحـــد يــدرى أين النهــاية

* * *

ويمضى النهـر بعيــداً ... بعيــداً
ربمـا مائة ميل أو يزيد ... وحيــداً
ولــكن ســيأتى أطفــال آخـرون
ليحملوا سفنى الى الشاطىء من جديد ..!

ولم تكن كلمات تلك القصيدة تفارق خيالها ، وكانت تتساءل « وماذا يكون الحال اذا لم يوجد أحــد هناك بجوار النهر ليرى الأوراق الطافية فوق الماء ؟ ان أحداً فى هذه الحالة لن يعيــد مراكبى الى الشاطىء ! وقد يحدث ذلك أيضاً للأفكار النادرة والثمينة ما لم تلتقط ويحتفظ بها بعناية فى كلمة أو صورة » .

فى نفس الوقت كانت مرجريت مهتمة بمفهوم آخر ، مما عندها من مثــل جاء فى الانجيل ، يقول « ان رجلا شريراً لف موهبته فى منديل ولم يفعل

بها شيئاً غير اكتنازها » ، وكانت مرجريت تعرف أن المقصود « بالموهبة » هو المال . وبعد ذلك بسنوات قالت « اننى أنتمى لأسرة لا تكاد تذكر كلمة ضرائب حتى تقول أنهـا من القلة بحيث لا تسمح بتحسين المدارس الى الحد الذى يجب أن تكون عليه ، ولذلك لم يخطر على بالى قط أن أتمسك بالمعنى الحرفى للمثل الذى جاء فى الانجيل ــ أى بضرورة العمل على تنمية المال ــ ولذلك كنت أعتبر الذين لا يستخدمون أموالهم فيما ينفع ، والذين لا يستخدمون قدراتهم فى وضع أغنية جميلة أو كتاب مفيد ، مثلهم مثل الذين يصرون مواهبهم فى منديل » .

وتدريجياً بدأت مرجريت تتبين « الالتزام المفروض على كل فرد فى أن يستخدم كل ما يملك من مواهب حقيقيـة ومؤكدة بحكمـة وتبع للآخرين » .

بدأت مرجريت الدراسة فى المدارس وهى فى سن الثامنة ، غير أنها أصيبت فى العام الدراسى التالى بحالة شديدة من السعال الديكى ، وعندما تماثلت للشفاء ، عادت جدتها لتعلمها فى البيت ، فتعلمت الرسم والخياطة ، كما أخذت تقرأ بتوسع وتكتب التمثيليات ، وقد كتبت فيما بعد تقول « كنت طفلة قانعة وراضية » ولكنى جذبتها لأمها السيدة فوج وصفتها بطريقة أخرى ــ فكانت تقول عنها « انها فى ذلك الوقت كانت طفلة متعبة تكتب كثيراً تمثيليات طويلة لا يرغب أحد فى سماعها أو قراءتها » .

بدأت مرجريت حياتها الجامعية فى جامعة ديبوا بجرينكاسل بانديانا وهى الجامعة التى تعلم فيها أبوها . ولكنها فى نهاية السنة الأولى حولت أوراقها الى كلية برنارد التى تعتبر جزءاً من جامعة كولومبيا بنيويورك . ذلك لأنها كانت « تحب أن تتلقى العلم فى جامعـة كبيرة باحدى المدن الكبرى » فهناك تستطيع أن تقـابل خليطاً من الناس وترى الكثير من العادات والتقاليد الجديدة وتستطيع فى مدينة نيويورك أن تستمتع بأربعين

مسرحية فى السـنة ، وأن تكتب الشعر وأن تسهر حتى منتصف الليل تتناقش مع أصدقائها .

وأمضت مرجريت وقتـاً طيباً فى نيويورك ، وقد تفوقت فى اللغـه الانجليزية وراحت تحقق كل ما كانت تأمل فيه مما يمكن أن يفعله الانسان فى مدينة كبيرة ، ولكن جميع المناهج الدراسية التى كانت تدرسها لم تشبع اهتمامها الكبير بالناس فقد كانت تريد أن تدرس حياة الشعوب التى تعيش فى القطب مثلا أو فى المناطق الاستوائية .. فوق الجبال أو على شواطىء البحار ، القبائل البدائية الصغيرة والدول المتقـدمة الكبيرة ، كما كانت تريد أن تدرس أحوال أولئك الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ، والذين استطاعوا أن يصنعوا التاريخ منذ آلاف السنين .

وفى الصيف بلغت مرجريت عامها العشرين وأمضت اجازتها السنوية مع أسرتهـا . وكانت الأسرة تعيش فى ذلك الوقت فى مدينـة باكنجهام بينسيلفانيا ، وبحماستها المعهودة راحت تكتب تمثيليـة تاريخية أسمتهـا « روح وادى باكنجهام » . وفى هذه التمثيلية أعدت دوراً لكل طفل من أطفال المدينة ، وتطوعت عضـوات النوادى النسـائية باعداد الملابس التاريخية المتألقة ، وجاءت زميلة لمرجريت من الكلية لتقوم بتدريب الأطفال على الرقصات .

وتحدد آخر الصيف موعداً لعرض التمثيلية ، وقد عرض المهرجان فى مرج فسيح على قدر كبير من الجمال ، وفى اللحظة الأخيرة تملكت الحماسة أحد آباء الأطفـال المشتركين فى المهرجان فقـرر أن يزيل الحشائش التى تعترض طريق الأطفال وراح يعمل منجله فى الحشائش الطويلة التى تحمل زهوراً برية . ولكن تراكمت فى الحفرة التى أعدت لانتظار الأطفال قبل ظهورهم على المسرح طبقات من العليق السام مما تسبب فى تأخير الدراسة فى مدارس باكنجهام أسبوعاً عن موعدها المعتاد ، فقد نقل معظم تلاميذ مدينة باكنجهام الى بيوتهم مصابين بالتسمم من العليق .

وفى السنة النهائية بكلية برنارد حضرت مرجريت المنهج الدراسى الذى كان يقدمه دكتور فرانز بوا فى قسم علم الأجناس ، ومنذ اليـوم الأول استولى عليها هذا الموضوع وألهب خيالها وحماسها ، وسرعان ما تبينت أنها قد وجدت أخيراً طريقها فى الحياة .

وعلم دراسة الأجناس بحر شاسع ، ففيه يدرس العلماء مكان الانسان من الطبيعة ويهتمون فيه بنشأة شعوب الأرض ، وتطورها ونموها وأوجه الاختلاف والشبه بينها منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا .

ولعلم الأجناس فروع كثيرة يستطيع الطلبة أن يتخصصوا فى أحدها ، فهناك من يتخصص فى القيام باجراء الحفريات فى مخلفات الحضارات القديمة ، ومنهم من يتخصص فى دراسة التكوين الجسمانى لكل جنس من أجناس البشر . أو من يحاول تتبع انتشار العادات والتقاليد والعقائد الدينية على سطح الأرض ، أو تحديد مئات اللغات المختلفة ومعرفة أوجه الانفصـال والاتصال بين الألسن المختلفة .

ومن بين هذه الفروع الكثيرة المتعددة كانت مرجريت تهتم اهتماماً خاصاً بدراسة ثقافة الأجناس البشرية ، وليس المقصود بثقافة شعب من الشعوب هو ما تتضمنه من موسيقى وفن وحسب ، بل وجميع أساليب حياة هذا الشعب ، وعالم الأجناس لا بد أن يكون مدرباً على ملاحظة أدق التفاصيل التى يتكون من مجموعها نمط حياة هـذا الشعب أو ذاك ، فهو لا بد أن يلاحظ ما يجرى فى مراسيم الزواج ، أو فى تنظيم لجنة أو تشييع جنازة ، كما يجب أن يعرف كيف يطهو الناس طعامهم ، ومن يحصل على النصيب الأكبر منه الأطفال أم الكبار ، وهل يقدم الشعب الطعام ليناً يبلع أم صلباً فيمضغ ، وهل يتناولون الطعام معاً أم يدير أحدهم ظهره للآخر أثناء تناوله الطعام ، وأخيراً فان على عالم الأجناس أن يبحث عن نمـاذج وأنماط العقائد التى تكمن وراء سلوك الشعب على هذا النحو أو ذلك .

وقعت مارجريت — فى مرحلة اكتشافها لعلم دراسة الأجناس — على

كتاب اسمه « لغز جزيرة ايستر » . وكانت السيدة سكورسبي روتلدج واضعة هذا الكتاب تحس بشيء من الحيرة ويتملكها قدر كبير من حب الاستطلاع لمعرفة السر وراء عدد من النصب المقامة فى جزيرة ايستر . فأعدت حملة استكشافية ، وسافرت بحراً الى الجزيرة على أمل أن تلتقى برجل معين من أهالى الجزيرة قيل أنه يستطيع أن يخبرها بكل ما كتب من أساطير غريبة مسجلة فوق هذه النصب ، ولكنها عندما وصلت الى جزيرة ايستر — بعد مصاعب ومشاق — كان ذلك الرجل يحتضر ، ثم مات بعد أسبوعين من وصولها وماتت معه أسرار هذه الأساطير التى كان من المقدر أن تكشف سر تلك النصب .

وكان لهذا الكتاب أثره العميق فى تنمية احساس مرجريت بقيمة الزمن وبضرورة التعجيل بالقيام بالعمل . وكان الدكتور فرانز بوا ومساعدته الدكتورة روث بينيدكت يعلمان أن الزمن يمضى بسرعة وقد تضيع فرصة معرفة شيء ما عن بعض الحضارات البدائية التى كانت ما تزال تحيا على هامش العالم المتمدين ، فأناس مثل اميليــا ايرهارت كانوا يمهدون السبيل بسرعة للسفر بالطائرات ، ومن ثم فلن تطول الحياة بمثل هذه الحضارات ، وتلك الشعوب التى كانت لا تزال تعيش على هامش الحضارة الحديثة ، فلن يمضى بعض الوقت حتى تكون الطائرات قد نقلت اليها والى كل ركن من أركان العالم أصبع الحضارة الحديثة ليدمر كل أساليب الحياة البدائية القديمة كما تدمر أصابع الانسان أعشاش العناكب .

وكانت أمنية مرجريت أن تسجل كتابة بعض أساليب هذه الحياة ، قبل أن تتقوض تلك المجتمعات الى الأبد . وما أكثر الليالى التى قضتها ساهرة يضنيها الاحساس بأنه « قد لا يأتى أطفال آخرون ليعيدوا مراكبها الى الشاطىء ! » ولكنها استطاعت أن تقنع البروفيسور بوا بأن تكون رحلتها الأولى الى جزيرة ساموا .

ولكن كيف يدرس عالم الأجناس شعباً من الشعوب من خلال ثقافة

هذا الشعب ؟ ولقد أجابت مرجريت على هـذا السؤال بعد ذلك بعدة سنوات فى كتاب وضعته للأطفال تحت عنوان « شعوب وأماكن » فقد كتبت تقول « اذا أراد شخص أن يرى ما اذا كان نوع معين من المخصبات يزيد فعلا من محصول الفول أو لا يزيد ، فما عليه الا أن يخصب نصف حقل التجارب ، ويترك النصف الآخر بغير مخصبات ، فاذا ما جاء محصول النصف الأول وفيراً فلن يشعر أحد بالأسف على مصير النصف الآخر ، فما من أحد سيهتم بمعرفة أحاسيس الفول ، وما من أحد يتملكه الخوف من أن يتحول صاحب حقل التجارب الى انسان قاسى القلب » .

ولكن دراسة الانسان ليست على هذا القدر من البساطة . فنحن لا نستطيع أن نوجه التليسكوب نحو الانسان ونراقبه ، كما لا نستطيع أن نضعه فى أنبوبة مخبار ضخم ونراقب تصرفاته كما نراقب تصرفات حشرات الفاكهة ، ونحن أيضا لا نملك الأدوات التى تمكننا من مشاهدة ما يدور داخل الانسان لنتبين ما يجرى فى مخه وهو يحاول حل مشاكله ، أو ما يطرأ على دورته الدموية عندما يتملكه الغضب أو يستولى عليه الخوف . كما أننا لا نستطيع أن نقنع رجلا أشول بأن يتزوج من امرأة شولاء ليتبين هل سينجب طفلا أشول » .

ان عالم دراسة الأجناس لا يملك غير أداة واحـدة هى روحه وذاته « ـ فالانسان الذى يراقب انساناً آخـر يستطيع أن يتفهم شـيئاً من احساسه ، واذا ما تعلم لغتـه استطاع أن يوجه له الأسئلة ويتلقى منه الاجابة على هذه الأسئلة ، وهكذا فان دراسة الانسان تبدأ فى كثير من أنحاء العالم برجال أو نساء يوجهون أسئلة ويتلقون اجابات ... »

واستطاعت مرجريت أن تحصل على منحة مالية من منظمة علمية لتغطية نفقات بحثها الميدانى ، ولكن المركز القومى للبحوث لم يكن يتكفل بنفقات السفر ، وكان أمام مرجريت رحلة طويلة بالقطار تقطع فيها القارة الأمريكية

من نيويورك حتى سان فرنسيسكو ، ومن هناك تركب سفينة تقطع بها خلال أسبوعين أربعة آلاف ميل فى المحيط .

وقد دأب البروفيسور ميد على تشجيع مرجريت دائماً ، فتدخل ثانية ومنحها ألف دولار لتشترى بها تذاكر السفر ، وقال معللا تشجيعه هذا « ان بحثاً كهذا سوف يضيف الى معلومات الانسانية شيئاً جديداً جديراً بأن يتحقق مهما كان الثمن » .

وانهالت على مرجريت النصائح : « انتظرى بضع سنوات قبل أن تقومى بهذه المهمة الكبيرة » — « سأوصى كبير أطباء المحطة البحرية التابعة لأسطول الولايات المتحدة فى ميناء باجو — باجو ليوليك رعايته » — لا تأكلى لحم الخنزير نيئاً ولا تقربى السمك المملح » .

وقبلت مرجريت التوصية لكبير الأطباء ، وأكدت لأصدقائها أنها لا تجد فى نفسها أى رغبة لتذوق لحم السمك المملح ، وحينما كانت الباخرة ماتسونا تعبر بها الباسفيك تذكرت مرجريت نصيحة قيمة قدمها لها أحد أساتذة كلية برنارد وهو البروفيسور هنرى كرايتون أستاذ علم الحيوان ، الذى قام بعدد كبير من الرحلات فى بحار الجنوب ولهذا كان كل ما يقوله عن هذه المناطق يمكن أن يكون حجة ومرجعاً وقد قال لمرجريت « خذى معك وسادة صغيرة وعندئذ ستستطيعين النوم حيثما تلقى بك المقادير » .

وعندما رست الباخرة مانسونا فى ميناء هونولولو نزلت مرجريت ضيفة على احدى زميلات أمها فى الكلية ، وظلت هناك حتى أقلعت بها الباخرة سونوما فى الطريق الى ساموا .وقد أرادت مرجريت أن تبتاع وسادة صغيرة فقالت لها مضيفتها « دعينى أعد لك واحدة » وأعدت لها وسادة جميلة مكسوة بالحرير الأزرق اللون لا تصلح لغير مهد طفل ، وعندما قدمتها لها اعتذرت لها قائلة « لقد ألححت على أن تكون صغيرة . وقد حققت طلبك ! » .

٢

لم يكن من الغريب أن تخرج مرجريت مخدتها وحاجياتها الأخرى وهى فى دوامة من الاثارة وعدم الارتياح ، لقد وجدت نفسها أخيراً فى هـذا الفندق المتداعى فى جزيرة سمواه ، تفصلها آلاف الأميال عن أهلها ، وليس فى يدها أكثر من ٤,٥ دولارات ، وراودها أمل كبير فى أن يصل اليها ــ وربما على السفينة التالية ــ شيك آخر بمبلغ المنحة الثانية التى كانت تتوقعها .

ومن أعماق قلبها راحت تصلى من أجل نجاح المشروع الكبير الذى ينتظرها ، فهى فى سبيل القيام ببحث ميدانى لم يسبقها اليه أحد ، وتحاول حل مشاكل مختلفة لم يتعرض للبحث عنها أو تلمس الحلول لها أحد من قبل رجلا كان أو امرأة ، وهيأت نفسها لأن « تصبح فتاة سموانية على قدر ما تستطيع وتسمح الظروف حتى تتعلم طريقة تناولهن الطعام ، وتنـام مثلهن فوق الأبسطة ، وتشاركهن الضحك ، والقفشـات ، والسلوك ، والتصرفات . فكما أنه يستحيل اكتشاف المغارة الا بالدخول فيها ، كذلك فانه لا سبيل للتأكد من الطريقة التى تتصرف بها الفتاة السموالية الا أن تحيا حياتها ، وتعيش داخل مجتمعها » .

وفى اليوم التالى انغمست مرجريت فى العمل وأخذت ممرضة من أهل الجزيرة ذات صوت ناعم له جرس عذب تدعى بترفلاى تعطيها دروساً فى اللغة السموانية .

وراحت بترفلاى تكرر لمرجريت : « تالوفا بالسموانية تعنى أحبـك بالانجليزية » كما راحت تطلب منها أن تكرر عبارة « نامى والعمر الطويل لك » فتقول مرجريت بالسموانية « توفا سوى فوا » .

وكثيراً ما كانت مرجريت تقع فى الخطأ ، ولا عجب فتعلم لغة البولينيزيان مهمة شاقة ، لأن هذه اللغة لا تنتمى الى أى لغة أخرى من اللغات الحديثة

ولا تخضع للقواعد العامة التى يمكن تطبيقها فى تعلم اللغات ، وقد زاد من صعوبة اللغة أن نطق المقطع الثانى فى الكلمة بدلا من المقطع الثالث يغير المعنى تماماً . وذات مرة اعتقدت مرجريت أنها تقول : « اللغة السموانية لغة صعبة جداً » فاذا بترفلاى تنفجر ضاحكة لأن مرجريت كانت فى الواقع تقول — كما أخبرتها بترفلاى فيما بعد — « ان اللغة السموانية تلقيح ضد الجدرى جداً !! » . ولذلك لم يكن غريباً أن لا ترتسم أية انفعالات على وجوه من كانت مرجريت تتحدث اليهم ! » .

وفى اللغة السموانية تعنى كلمة « مالا مالا ما » كل من « الضوء » و « الفهم » ، وقد ظلت مرجريت تعمل جاهدة لمدة ستة أسابيع متواصلة من أجل « المالا مالا ما » ، وكانت كثيراً ما تقول : « أنا لا أستطيع تعلم هذه اللغة لا أستطيع » ولكنها فى يوم من الأيام لاحظت أنها كانت تقول : «أنا لا أستطيع أن أتعلم هذه اللغة» باللغة السموانية ولا باللغة الانجليزية ، وحينئذ أدركت أنها تستطيع أن تتعلم هذه اللغة .

وأخيراً أصبحت مرجريت مستعدة لمبارحة ميناء باجو — باجو ، متوجهة الى جزيرة « السلحفاة والقرش » ، فقد وافق أوفوتى ، زعيم هذه الجزيرة أن يستقبلها فى بيته كواحدة من أهل البيت . وقد قامت احدى قريبات الزعيم أوفوتى — وهن كثيرات — باصطحابها الى القرية .

وتقع قرية « السلحفاة والقرش » على الشاطىء الغربى من جزيرة تاو ، وتتكون هذه القرية من عدة أكواخ متناثرة بشكل هندسى بديع بين غابة كثيفة من أشجار النخيل والموز والمانجو . وتغطى هذه الأكواخ بأسقف مستديرة مصنوعة من قش قصب السكر ، فتشبه خلايا نحل قائمة فوق أعمدة من الخشب ، ولم تكن لهذه المنازل جدران ولا حوائط . وعند حافة البحر شاهدت مرجريت مجموعة من الأسقف الأكبر حجماً وعلمت من مرشدتها أنها بيوت الضيافة التى ينزل فيها ضيوف زعماء الجزيرة ، وتسمى هذه البيوت بـ « البيوت التى يستقبل فيها الغرباء » .

وطالعها وجه الزعيم أوفوتى الطيب فلم تحس بأنه يستقبلها كغريبة .

بل رحب بها عند باب البيت ، كما رأت ساقا زوجته ذات الجسم البدين والوجه المكتنز المحلى بغمازتين تزين وجنتيها ، كما رأت ابنته «فا أوموتوا»، وابنه الصغير ، وطفلة صغيرة تحبو اسمها تيوليب « الزنبقة » ، وشاهدت فى البيت عدداً كبيراً من الضيوف الذين جاءوا من جزر أخرى .

أمام ذلك الحشد الكبير كان علي مرجريت أن تمر بمراسيم الاستقبال التى دربتها عليها بترفلاى بعناية بالغة خلال الأسبوعين السابقين وبدأت مراسيم الاستقبال بقول الزعيم أوفوتى : « أهلا بك تكرمى بالدخول تحيطك كل آيات التكريم والترحيب » .

وترد مرجريت بصوت عذب جميل وبكل كياسة وأدب : « جئت وما كنت أنتظر كل هذا الشرف بحضور فخامتكم وحضور السيدة الجليلة التى تجلس فى مؤخرة البيت ! » .

فيقول الزعيم أوفوتى : « أسفى شديد لأن تنزلى فى بيتى وليس فيه ما يسر الخاطر أو يمتع القلب » .

فتقول مرجريت : « لا عليك يا صاحب الفخامة فهذا تواضع شديد منكم ! » .

وكانت مرجريت فى حالة عصبية للغاية حتى انها كانت تخطىء فى الاجابة ، وكان الله وحده يعلم حقيقة ما تقول ، ولكن الزعيم أوفوتى تظـاهر بأنه لا يلاحظ اضطرابها ، ثم قدموا لها جوزة هند طازجة ، ورحبوا بها فى البيت كاحدى بنات الأسرة ، وأصبح اسمها ماكليتا لا مرجريت .

وحان وقت النوم فقامت النسـوة بفرش أبسطة رقيقة كانت معلقة على خشب السقف ، واحداً فوق الآخر حتى علا المخدع بضـع بوصات عن الأرض . وكان على مرجريت أن تشارك أختهـا الجديدة « فا أموتو » فراشـها . ولم تستخدم ماكليتا وسادتها الصـغيرة من باب المجاملة فقد أحضرت لها « فا أموتو » ملاءة بيضاء كالثلج ووسادتين نظيفتين . وقد طرزت وسادة ماكليتا بورود حمراء جميلة ولكنها كانت صلبة كقطعة من الاسفنج الجاف .

وأنزلت الفتيات من فوق حبل ممتد بين خشب السقف كلة « ناموسية » واستعملوا قطعاً من الحجارة فى تثبيت أطرافها فوق الأرض . وعلق الزعيم أوفوتى ستارة عريضة من قماش مصنوع من لحاء الشجر ليفصل ركن الفتيات عن بقية البيت . وقد عرفت ماكليتا فيما بعد أنه فعل ذلك مجاملة لها لأنه يعلم أن الأمريكيين يحبون العزلة ، أما السموانيين فلا يحتاجون لجدران ، وعندما يرتدى الواحد منهم ملابسه أو يمشط شعره فما على الآخرين الا أن يديروا ظهورهم ...

وهكذا رقدت ماكليتا ، لا يفصل غرفتها عن بقية الغرف غير تلك الكلة ، التى تبعد عنها الكلاب الهائمة والخنازير والدجاج ، وقد ظلت ماكليتا تتقلب فى الفراش حتى استقرت أخيراً على وضع مريح وهى ممددة فوق ظهرها ، وترامت اليها أصوات البحر الرتيبة فنامت .

واعتبرت ماكليتا من الليلة الأولى فتاة ساموانية ، وفى الصباح اشتركت مع أختها الجديدة فى اعادة الأبسطة الى مكانها فوق خشبة السقف ، ثم جاءت بمكنسة صلبة ذات يد قصيرة ، وراحت تكنس أرضية البيت ، وتزيل عنها حصى المرجان الذى تقذف به مياه البحر . وسرعان ما تعلمت كيف تجلس القرفصاء فوق البساط ، وأن تأكل بأصابعها ، ثم أجادت صنع هذه الأبسطة البدائية الخشنة التى كانوا يستخدمونها موائد ومخادع ومقاعد .

وخصص أوفوتى المؤدب لولو لتعليم ماكليتا كل ما ينبغى أن تتعلمه الفتاة السموانية من سلوك وتصرف ، فتعلمت كيف أن الحديث فى البيت والمرء واقف على قدميه وقاحة لا تغتفر ، كما تعلمت أن تجلس القرفصاء الساعات الطويلة دون أن تتململ أو تتذمر . وكان لولو شخصاً لطيفاً يضحك من أخطائها ، فاذا لم تصححها فى الحال أو اذا عجزت عن تصحيحها كان يتحول الى الصرامة والشدة .

وكانت الفتيات الصغيرات السن اللاتى تتراوح أعمارهن بين السادسة والعاشرة هن اللاتى يتولين رعاية الأطفال فى جزيرة سموا ، أما البنات الأكبر سناً فكن يذهبن مع أمهاتهن الى الحقول لزراعة قصب السكر

والبطاطا . كما كن يقمن أثناء انحسار ماء البحر بالبحث عن الكابوريا بين الشعب المرجانية والصخور القريبة من الشاطىء . وعندما يبلغن سن الثانية عشرة كانت الفتاة تبدأ فى نسج بساط جميل طويل على غير العادة ، ليكون فى يوم من الأيام جهاز عرسها . وقد كان الانتهاء من نسج مثل هذا البساط يتطلب سنوات عديدة ، ولم تكن الفتيات السموانيات متعجلات ، فالسرعة فى هذا العمل تعتبر من سوء السلوك ، وكان السموانيون يطلقون على التسرع معنى «النطق بما لا يتفق وسن الانسان» .

كانت الحياة فى قرية « السلحفاة والقرش » مدعاة للبهجة والسرور ولكن كان على ماكليتا أن تقابل أناساً آخرين فى قرى أخرى ، لذلك حان وقت الرحيل .

وقام زعماء قرية « السلحفاة والقرش » بالدعوة لاجتماع عاجل ، وجلس أهم الرجال فى مواقع ممتازة بالقرب من أعمدة البيت حتى يستطيعوا اسناد ظهورهم اليها ، أما من دونهم فى المرتبة والأهمية فقد جلسوا فى العراء لا يسندون ظهورهم ... !

وقد كتبت الدكتورة ميد بعد عدة سنوات تصف هذا الاجتماع بقولها :
« كان على أن أجلس القرفصاء مشدودة الظهر مبسوطة الذراعين حتى آخرهما ، وعلى كثرة الذباب الذى كان يطن تحت ذقنى كان من المحرم على أن أحرك اصبعاً واحداً لأطرده بعيداً ...

« وأخيراً وجه الى أخطر سؤال ، فقد انحنى زعيم طاعن فى السن قليلا الى الأمام وسألنى : لماذا رسمت خطتك على البقاء فى قريتنا هذه أسبوعين فقط ، ثم الذهاب الى جزيرة مانو البعيدة والبقاء فيها ستة شهور ؟ وتكهرب الجو ، وأخذت بسرعة أرتب الأسماء والأفعال والمقاطع فى ذهنى ، ثم أجبت وأنا متقطعة الأنفاس : لو سمحتم لى يا صاحب الفخامة فقد رتبت أمورى للذهاب الى مانو قبل أن أكون قد شاهدت قريتكم الجميلة (السلحفاة والقرش) .

« وبدا الارتياح على وجوه الحاضرين ثم همس أحدهم فى أذن جاره : لقد أجابت الاجابة اللائقة وهكذا نجت من المأزق » .

وظلت ماكليتا عدة شهور تدرس بعناية ودقة الخمسين فتاة اللاتى كن يقمن فى ثلاث قرى ساحلية من قرى جزيرة باو فى أرخبيل مانو ، فزرعت معهن قصب السكر ، وأحضرت فتات المرجان ورشت به الأرض ، ونسجت عقود الزهور ، ورقصت معهن وقت الغروب على أصوات غنائهن المصحوبة بايقاع الأيدى ، وسارت حافية القدمين فوق الشاطىء الرملى ، وراحت فى الليل تصطاد الأسماك على أضواء المشاعل ، وأكلت البطاطا والموز غير الناضج المكمور فى الرماد الساخن ، كما أكلت ثعبان الماء والكابوريا البرية وسمك التيوتى الذى لم يكن يختلف فى مذاقه عن طعم « الكاسترد » . وأدهشها أن تجد أن مذاق السمك المخلل لا يختلف عن طعم الجبن الدسم وقد تأكدت من ذلك بعد أن تذوقت قطعة أخرى منها .

وفى أثناء ذلك كانت ماكليتا تملأ صفحة بعد أخرى من صفحات مذكراتها بالكثير من التفاصيل عن فتيات الجزيرة وعائلاتهن ، وكانت قد عرفت كيف يمضين الليالى والأيام وكيف يخترن الأصدقاء وماذا يعتقدن فى أنفسهم ، وكيف تتطــور عملية نموهن ، وكيف يتزوجن ، كما رسمت فى مذكراتها اسكتشات تبين طريقة صنع القماش من لحاء الشجر ، وكيف تصنع الفخاخ لصيد ثعبان الماء .

وذات يوم ذهبت ماكليتا الى جزيرة أوتوا على بعد ١٢ ميلا عن جزيرة مانو ، وصحبتها فى الرحلة صديقتان « الورود الحمراء » و « المولودة فى ثلاثة بيوت » . فلففن حول رؤوسهن قطعاً من القماش المبلل بالماء حمــاية لهن من قسوة الشمس ، بينما غطى الشبان ــ الذين كانوا يقومون بالتجديف فى القارب ــ رؤوسهم بطبقة كثيفة من الجــير المطفى ليحميهم من ضربة الشمس ، وفى نفس الوقت يصبغ شعرهم بلون أصفر باهت .

وعندما رسوا بالقارب فى جزيرة أوتوا كانت الشمس قد غربت ، والمطر يهطل مدراراً ومع ذلك أعد لهم الزعيم الأكبر ميسا حفل استقبال فى ذات الليــلة .

ارتدت ماكليتا جونلة مصنوعة جيداً من بساط منسوج كما ارتدت

صديرياً محكماً وزناراً عريضاً من قماش أبيض مصنوع من لحاء الشجر ثم طلت جلدها بطبقـة من زيت الكاكاو وثبتت زهرة نضرة خـلف أذنها واشتركت فى الغناء والرقص .

وفجأة وجه المتحدث باسم الزعيم ميسا الحديث الى ماكليتا قائلا : « ان صاحبة العصمة زوجة ميسا قد رقدت فى سلام (ماتت) وميسا رجل غنى ، ولسوف يتزوج سموك ويصحبك فى جميع رحلاتك القادمة حول العالم » .

وفى الحال أحست ماكليتا أنها مرجريت ميد الغربية . وتوقف الرقص والغناء . وقد جلست فى دائرة من الوجوه السمراء المترقبة وراحت تتساءل ترى بماذا تجيب عليه ! ؟ هل تنتهى علاقتها بهؤلاء النـاس البسطاء ذوى الحفـاوة والكرم باهانة زعيمهم ؟ وربمـا لم يكن العرض يحمـل معنى الجد ، ومع ذلك فالناس كثيرون ومجتمعون وينتظرون منها الجواب .

وساد صمت طويل ، ثم أجابت ماكليتا بعناية ودقة : « عندما تركت أهلى فى أمريكا قلت لهم اننى سأطوف حول العالم بمفـردى . فسخر منى جميع الناس وقالوا ان مجرد فتاة ضئيلة مثلى لا تستطيع أن تطوف العالم بمفـردها .

« فلو قبلت الشرف العظيم الذى يضفيه على صاحب الفخامة ميسا باصطحابى فى رحلاتى حول العالم ، لسخر منى جميع الناس وقالوا انهم كانوا على حق فيما قالوه عنى . وعندئذ سأحس بالخجل لأننى قد تباهيت بشىء لم يكن فى مقدورى أن أحققه » .

وزال التوتر ومرت الأزمة بسلام ، فقد أعطت ماكليتا الاجابة اللائقة للمرة الثانية .

وأخيراً ودعت مرجريت ميد « اخوتها وأخواتها ، وأقاربها ، وأصدقاءها » فى ساموا ، وعادت الى نيويورك وانضـمت الى هيئة المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى وهناك راحت وهى جالسة أمام مكتب صغير تحت افريز السقف تحول مذكراتها ــ التى لا حصر لها ــ الى كتاب .

ووصف الكتاب كيف تكبر الفتيات السمواليات فى سلام وطمأنينة ،

فهن لا يعانين من الكبت والتوتر اللذين تعانى منهما معظم البنات الأمريكيات. وذلك لأن ثقافتهن لا تتجاذبهن هنا وهناك وراء أهداف متعارضة ومتناقضة ، وكان كتاب « سن النضوج فى ساموا » من الكتب الجيدة ويحمل من الأفكار كل جديد ، وغريب ، وطريف ، بالنسبة للأمريكيين لدرجة أن نفدت طبعته الأولى فور صدوره مباشرة .

وقبل أن تعرف الدكتورة ميد الشابة مدى ما حظى به كتابها من شهرة. كانت قد بارحت البلاد هى ووسادتها الصغيرة الزرقاء فى رحلة أخرى تستهدف القيام بدراسة ميدانية جديدة ، وفى هذه المرة قامت بزيارة جزر « ادميرالتى » وهى مناطق شديدة الحرارة وتقع فى شمال غينيا الجديدة . وبالرغم من أنها ظلت مريضة بالملاريا طوال أكثر من ثلث الفترة التى قضتها فى تلك الجزر الا أنها استطاعت ـــ خلال اقامتها ـــ دراسة أطفال المانوس ، وراعت بأمانة المحرمات المانوسية ، وتعلمت كيف تستخدم القواقع وأسنان الكلاب بدلا من النقود فى المعاملات والمقايضات .

وللمرة الثانية استطاعت أن تؤلف كتاباً ثانياً عن مجتمع فى طريقه الى الزوال والانقراض . وكان الكتاب يحمل اسم « النمو فى غينيا الجديدة » وصفت فيه شعب المانوس بلونه البنى الذى يعيش فى بيوت مقامة فى البحر فوق قوائم خشبية عالية ويربون أطفالهم ليصبحوا مقاتلين ، ورجال أعمال. شغلهم الشاغل هو جمع المال .

ومع مرور الزمن تعددت أدوات ومعدات عالم دراسة الأجناس حتى اشتملت على الأفلام ، وكاميرات السينما ، وأجهزة التسجيل . ولكن الأداة الرئيسية ظلت كما كانت دائماً هى الذهن المتفتح والروح المتسائلة والمتطلعة .

وقامت مرجريت ميد بدراسة ثلاث قبائل أخرى من قبائل غينيا الجديدة ، فاكتشفت أن شعب «الأرابيش» شعب مسالم يحب المرح ويتعلق بالأطفال ، أما كبار الموند يجبومر الغاضبون فكانوا يعاملون أطفالهم بخشونة وينشئونهم لكى يكونوا قناصة رؤوس وأكلة لحوم بشر . وبين

« التشاميولى » كان الرجال يصففون شعورهم فى خصلات صغيرة أنيقة ، ويمشون بخطوات رشيقة ويعشقون حفر أشياء جميلة على الخشب ، وكانت المرأة هى التى تختار شريك حياتها وتحتفظ بعصمتها والمال فى يدها .

وفى مارس عام ١٩٣٦ تزوجت الدكتورة ميد من عالم انجليزى فى دراسة الأجناس يدعى جريجورى باتسون . وبعد زواجهما سافر الزوجان الى بالى . وأجرت الدكتورة ميد دراساتها المألوفة على طريقة تربية الأطفال الباليين بينما التقط الدكتور باتسون ٢٨,٠٠٠ صـورة فوتوغرافية كما التقط فيلماً سينمائياً طوله آلاف الأقدام .

وفى عام ١٩٣٩ ولدت فى مدينة نيويورك طفلتهما الوحيدة مارى كاترين باتسون . وأصبح على مرجريت ميد أن تعمل ــ كما كان على أمها أن تعمل من قبلها ــ على تحقيق التوازن بين مطالب أسرتها ومطالب عملها .

وكما فعلت والدتها حينما كانت طفلة احتفظت « بسجل للطفلة » سجلت فيه ماهو أكثر من مجرد البيانات العادية عن أول سنة نبتت فيها أسنان لكاترين وأول خطوة خطتها . ووصفت سلوكها وهى تنمو ، وسجلت عنها معلومات وبيانات تشبه الى حد كبير تلك المعلومات التى سجلتها من قبل وهى تدرس حالة نمو كلب صغير ، أو كيف كانت تتصرف وهى غاضبة أو كيف كانت تتقبل الطعام الغريب لأول مرة . وعندما كبرت كاترين وأصبحت قادرة على الكتابة ، قامت الدكتورة ميد بتعليم ابنتها كما علمتها أمها أن تلاحظ التفاصيل بعناية وتسجلها بكل دقة .

وشاركت الدكتورة ميـد بعض الأصدقاء الذين وفروا مقاماً لكاترين عندما كانت أمها فى رحلتها . ففى خلال الحرب العالمية الثانية مثلا عملت الدكتورة ميد كمستشار لحكومة الولايات المتحدة ، وأثناء هذه الفترة كانت تأمل فى أن تقترح طرقاً يمكن أن تتغير هذه الأذواق عن طريقها .

وفى عام ١٩٥٣ وعندما بلغت كاترين الرابعة عشرة من عمرها ، أخذت الدكتورة ميد على عاتقها القيام برحلة دراسية كبرى . فعادت لزيارة شعب المانوس الذى كانت قد أجرت عليه دراسـاتها منذ خمس وعشرين سنة مضت .

وخلال سبعة وثلاثين عاماً قامت الدكتورة ميد بتسع رحلات ميدانية وتعلمت سبع لغات من لغات البحار الجنوبية . وأصبحت من أبرز المحاضرين فى الولايات المتحدة وأوروبا واستراليا ، وكانت فى بعض الأحيان تلقى أكثر من ٨٠ محاضرة فى السنة الواحـــدة ، وواصلت عملهـــا مع المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى كما قامت بتدريس مادة علم دراسة الأجناس فى جامعة كولومبيا .

ولقد قلبت اكتشافات الدكتورة ميد الكثير من المعتقدات القديمة لأنها علمتنا أن العادة وليس « الطبيعة الانسانية » هى التى تدفعنا الى تنظيم حياة أسرنا وتربية أطفالنا على النحو الذى تقوم به . فشعوب العالم على كثرة تنوعها ، وتعدد أجناسها وألوانها ، وعلى اختلاف عاداتها وتقاليدها ، يفعلون فى واقع الأمر نفس الأشياء « فهم يتزوجون ويربون أطفالهم ، ويتعلمون كيف يوفرون لأنفسهم الطعام ، ويحافظـــون على النظام فى مجتمعهم ، واعطاء أطفالهم فكرة عن الانسان » .

وأدركت أنه بغض النظر عن المكان والزمان الذى يعيش فيه أى شعب وبغض النظر عن بساطة وبدائية المجتمع الذى يعيشون فيه فانهم أولا وأخيراً مخلوقات بشرية مثلنا تمـــاما . وكانت تقول « على الرغم من أنهم لا يعرفون الكتابة أو اجراء العمليات الحسابية المعقدة وعلى الرغم من أنهم لا يعرفون شيئا عن العلوم الطبيعية أو المعتقدات الدينية ، فان الفرق الذى نشأ بين ما نحن عليه الآن وما هم عليه لم يكن الا نتيجة شىء واحد فقط هو اننى استطعت أن أنشأ وأتربى فى مجتمع متحضر للغاية ، بينما هم لم ينشأوا الا فى مجتمع صغير مغلق وناء » .

لقد كانت تلك المكتشفات الأنثروبولوجية مؤشرات للأمل والثقة فى المستقبل ، فمجرد أن تعرف الانسانية أن شعوب العالم على كثرة ما بينها من تنوع واختلاف ليست الا شعباً واحداً ، وهذه المعرفة وحدها تعتبر خطوة حاسمة نحو اقرار التسامح والسلام فوق كوكبنا .

خاتمة

ثمانون عاماً فقط ...

هى الفترة التى تفصل بين يوم مولد « سوزان ب . أنتونى » ، ومولد « مرجريت ميد » . لذا كان من الجائز أن تفترض أن تكون السيدة الأولى فى هذا الكتاب جدة للدكتورة مرجريت ميد . ومع ذلك فقد تباينت ظروف حياة الاثنتين الى أبعد الحدود ، مما جعلهما وكأنهما من عصرين مختلفين .

ان نساء أمريكا اليوم لا يتمتعن بحق التصويت ، وركوب الدراجات فحسب ، بل أنهن يتمتعن بحرية واسعة لا تكاد تصدق . فقد أصبح لهن مطلق الحرية والاختيار لممارسة جميع المهن ، كما تفتحت أمامهن مختلف أوجه النشاط الانسانى التى يمارسها جميع أبناء الجنس البشرى .

ولنا أن تتصور ، بريق النصر ، وهو يلتمع فى عينى « سوزان ب . أنتونى » لو أنها بعثت من جديد ، لترى الحقيقة كاملة ، ثمـرة من ثمرات كفاحها المجيد .

« وأن الأبواب العتيقة القاسية قد دارت على مفصلاتها ، وانفتحت الى آخر مدى ، لتستقبل المرأة استقبالا حاراً صادقاً ، فى كل مكان ، وزمان ... بل وفى كل مجال وميدان » .


Bibliotheca Alexandrina
02490081